

الطبعة الاولى



الثالوث المجاور

رواية

تأليف
عائض السبعيني



الثالوث العجاف

تأليف

عائض السبيعى

الثالوث العجاف

عائض السبيعى

اسم الكتاب :: **الثالوث العجاف**
اسم الكاتب :: **عائض السبيع**
رقم الإيداع :: ٠٢٢٢ / ٠٢٤٢
التقديم الدولي :: 978-977-85985-7-5

الطبعة الأولى

تحذير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
الآن بموافقة خطية من المؤلف.

٢٠٢٤م - ١٤٤٤هـ

كلية الحقوق محفوظة



READ PUBLISHER

ISBN 978-977-85985-7-5



9 78977 834780

جمهورية مصر العربية

هاتف :: ٣٥٦٥٦٥٢ / ٠٤٨ / ٠٠٢

المبيعات :: تحويل داخلي ١٣

إدارة النشر :: +201000774595

إدارة التسويق :: +0201001253496



READ PUBLISHER
الطباعة والنشر والتوزيع

ReadPublisher.com

لشراء الكتاب ليصلك أينما كنت

Ishturi.com

الفصل الأول

في صيف يونيو من عام ١٩٧٥ ، صحا جمعان من سباتٍ عميقٍ ،
وإذا به يعبس عبوسًا خفيًا لا يحاول إظهاره ، فالعبوس اليوم أولى
لفقيد الأمة ، فما زالت الشعوب في عدة الحزن الجائرة لفقدانهم
رجلًا من رجالات القيادة ودهاء السياسة ، جلاله الملك فيصل الذي
مر على حادثة اغتياله ثلاث أشهر ، رغم ذلك فلا عنجهية أن تعasse
وفرح الإنسان بعد صحوته من نومته لا يتزامن إلا مع كابوس عابر
يرعبك فتفضل نسيانه أو حلم سرمدي تتذكرة عند انطوائك على
نفسك ، الحلم الأول يذهب إلى حافة النسيان ، بينما الحلم الأخير
المرغوب فهو سرمدي كرؤيه فقيدك أو ارتقائك إلى أعلى السلم
الاجتماعي كصيروتك شيخًا على قومك . لقد تمادى عليه
الكابوس حتى وصل إلى أعتى ما تعاديه النفس البشرية ، وربما في
هذه الحالة لن يُنسى .

جمعان السبيعي من قبلية الزكور القاطنين في بلدة الخرمة ،
رجل أعزب في السابعة والعشرين من عمره وعندما يُسأل عن سبب
تأخره للزواج؛ يعلل بأن زمنه ليس كما كان - ربما يعزى الأصل
في هذه التعميم العمري للزواج لمن هم في الثامنة عشر وأدنى؛ هو
نسيان البشر آنذاك لمفهوم المراهقة بل رفضهم لها ، والتاريخ يشيد
بفتیان في عمر الزهور حققوا المكاسب العظيمة رغم صغر سنهم ،

مثل أسامة بن زيد الذي ولاد النبي زمام قيادة جيش في غزوة الروم من السنة الهجرية الحادية عشرة، وكان فقط في الثامنة عشرة من عمره وقد انجز منجزات مهيبة - أما وصفه فكان قمي اللون لأصوله العربية العاربة، ولطالما فاقت أحلامه الرقعة الجغرافية القاحلة القاطن بها، يعمل في سلك الحرس الملكي برتبة وكيل رقيب وهو السلك المسؤول عن حراسة العائلة الملكية وحاشيتهم، وكان من المعتمد لأسرته من أبيه وأمه وإخوته استقباله بتقانٍ في الإجازات المنوحة له سنويًا، لذلك كان يكدر نفسه في الترحال سنويًا من مدينة الرياض إلى بلدة الخرمة بسيارته الرفيعة التي اصطدحت عليها العامة بالبهبهاني - جمس رفيع من غماره واحدة وحوض فضفاض - ولعل المسافة الشديدة المدى كان يسقط ثقلها مقابل سرور وابتهاج أسرته بعودته.

كان يدخل البهجة إلى قلب كل ما عاصره، وعندما يكلم الحجر فإنه يستجيب له من قدرته ورفعته في الحديث مع العامة، كان مثالاً على الذكاء الاجتماعي البحت، ولعل رتبته الحالية كانت نتاجاً يعزى إلى هذا النبوغ الاجتماعي وليس بتقادم الزمن في عمله.

هذا الحلم سيغير مجرى التاريخ وربما حياته للأبد، للأحسن أو للأسوأ، فليست كل الأحلام عابرة وربما السعي خلفها يعزز من وقوعها وعلى هذا بعض الأحلام يجب دفعها ولو تبارى حُسنها!

اليوم هو اليوم الموعود، تزامن العbos مع إجازة العساكر السنوية، كابوس خبيثٌ ورحلة بقيقة ستأخذ منه ثمان ساعات عجاف. أستفاق من صحوته وتوجه إلى دوره المياه للاختسال وما زال الحلم لاصقاً بذهنه يأخذ به يمنةً ويسرةً، يحاول نسيان حلمه البغيض.

في صدد هذه الملحمة الذهنية وإذا بزميله في السكن يدفع نفسه مع الباب حاملاً معه كيساً من الإفطار وكوبين من حليب الشاي، قعداً وجهاً لوجه وبدأ بتناول الأكل، محسن صديقه القريب وزميله الكريم لطالما دفع مكارم نفسه وأظهر خصلة الكرم التي يتميز بها الخلف الأعراب بالتكلف بالفطور أكثر الأيام وصده لأي امرئٍ يحاول الحلول مكانه بالملكرة؛ يتعجب من انحطاط سجية رفيق السكن وزميل العمل اليوم تحت العادة، خلقه الذي أظهر عليه هيئة المكشّر وصمته المستمر، سأله عن مغزى ضيقته اليوم، فرد:

- حلم، حلم لم أر بمثيله شيئاً.

- إذا كان حلماً مهيباً فلا تطرق به، ولكن السعادة لا تأتي إلا مع حلم سليم، وأنا لا أراها فيك اليوم.

- حلمت بحلم يحرم سماعه، لقد تراءى لي حلم على ما وصفتُ الآن، إنه خيال فوق كل التصورات.

- لعلك بحاجة لاستشارة مفسر أحلام، لأن حلمك يتراهى لي أنه تخبطات لا معنى لها تحصل لعامة البشر، ولكن لا بأس بالتحقق منه للخاطر، ربما يكون له معنى حسن، وقد لا يكون له معنى سوى حلم عابر، وعلى كل حال ذكر لي مفسر أحلام يقع في حي أم الحمام وهو قريب منا، يلقب بالمامون وقد سُير لي بكثير من مراجعه أنه كشف معجزات وأزال عقبات وحقق أمنيات، ولعله يقدر على كشف هاجسك المتختبط.

- سأمره اليوم مع مسيرتي نحو الخرمة، فالحي لا يبعد كثيراً ولا يتعب قويمًا، وستكون هذه أول مرة لي أخوض في خضم عالم التفاسير مع أن وصفك لهذا الرجل كأنك تصف لي كاهناً أو عرافاً، المقابلة بيننا ستكشف المجهول وتبين المعروف. فمن صدق كاهناً فقد كفر بملة محمد، ولا أرغب بالتجربة على هذا الحد. بعد أن تأكّدت رغبته في مقابلة مفسر الأحلام رغم تردداته البسيط؛ قرر جمع ثيابه ومستلزماته من ملابس وأغراض، والأهم أشمفه من قماش دم الغزال التي أهديت له من أقارب وزملاء له، للتوجه إلى أهله في منقطته الأم وما زال مصراً على المرور بمفسر الأحلام، الذي ستكون استشارته سريعة لا ترقى لاستشارة طبيب الحادثة الذي يأخذ منك ردحاً من الزمن لعنة التحاليل والكشف. بعد مرور ساعات على الفطور، غداً الوقت الآن الثالثة عصراً، لم يعطه زميله الكثير من التفاصيل حول موقع المفسر بالتحديد وما

حوله من معالم تدل عليه، ولكن شهرة المامون تغطي على من يجهله، فهو أشهر مفسر في زمانه، وأعلم الناس بخفايا وأسرار الأحلام، لذا كان من المسلم به أن يذاع صيته في العمورة.

بعد جولة خفيفة حول الحي السكني في درجة حرارة كل يوم تصاعد لحلول موسم الصيف، سأله أحد المارة عن المفسر:

- أتيت لرجل سُوقَ لي أنه ماهر في قراءة الأحلام العويسة، ويدعى بالمامون.

- المامون، نعم، رجل فاق مكانه وعلا زمانه بعرق جبينه، تجد منزله يقع في شارع المنصورة.

- أمن علامات تدل على منزل المامون؟

- المامون يعرفه الجاهل ويراه الأعمى، يسمعه الأصم ويتحدث عنه الأبكم.

غدا حائراً من كلام الرجل الغامض والذي يتadar في الذهن للوهلة الأولى أنه شعر، لم تكن إجابة الرجل كافية وواافية، رغم ذلك كان عليه تقبل شعر الرجل الواهي، والتوجه للمكان هذا لعله يجد منزله. وفي لطفٍ يقارب العشرة دقائق فإذا به يصل لشارع المنصورة، ولكن لا دليلَ ماديَّ على وجوديته، لقد بدأ في التشكيك في حقيقة هذا الرجل الذي ربما يكون أسطورة لا وجود لها، ولكنه أصر على صحة تواجده، مسبباً ذلك إلى صديقه، وما دام أن الشائعات من طرفه إذا هي حقائق.

أوقف سيارته عتيقة زمانه وبدأ بتلويح نظره يمنةً ويسرةً لعله يلمح لوحة تؤثّره إلى مكان البيت، وما زال موقعه مجهولاً بالنسبة له. توارى لذهنه أن الرجل هذا قد لا يكون موجوداً في هذه المنطقة في الأصل، ولكن قرر الذهاب والإياب حول الشارع المذكور لعله يجد منزله الخرافي.

رداً من الزمن ولّى، حتى اعتزم على طرق أول باب والسؤال عن مقبع المامون، جذبه بيت يدل على أن صاحبه رب أسرة، طرق الباب طرقتين، فالثالثة كانت طرقة حاسمة لاستجابة المالك:

- أتيت للسؤال عن بيت المامون، فهل لك علم به؟
- لا أعلم عنه شيء، ولكن إذا أردت موقع بيت مفسر الأحلام فهو بالزقاق الأخير من حجاجك الأيسر.

تعجب من سمعته وشهرته، فحتى جاهله أصبح عارفه في لطفٍ من الزمن، وكأنه تبرأ إليه وأطلاعه على شخصه. تقبل في النهاية تعليقه وقرر الانصراف وشكّره، والذهاب نحو الإحداثية المستجدة - وهو يردد بنفسه أنه تأخر على موعد سفره وترحاله - بعجلة حادة.

عندما أقترب نحو الزقاق وإذا برجل على عصاً يتحرك بخطى ركيكةٍ وحذرةٍ في جانب الرصيف، عندما لمحه، أدرك أنه كفيف، استوعب أن هناك تعرجاً في الرصيف وقد يتأثر الكفيف ويسقط، لذا هرع نحو الكفيف لإنجاده:

- يا عم، طريقك الذي تسير عليه فيه من التعثر قد يجعلك تسقط على جبينك.

- أهلاً يا هذا، ظننت أن عصاً يبصر أكثر مني، لكنها أصبحت فجأةً لا تفي بحاجتي لتحسين المخاطر، دلني علي ما رأيت ذلك نصيب ما تبتغي.

استغل مساعدة الكفيف في طرح طلب حول بيت المؤول، لعله يستحصل من هذا الطاعن في السن ما يفيد:

- تظهر عليك علامات الخبرة، وأظن أنك تعرف بما يهوي هنا من أخبار، فهل سمعت عن المامون من قبل؟

- لم أره بحياتي بسخرية الطبع، ولكن في الحقيقة المامون رجل ظهرت عليه علامات الكبر والنبوغ، عالم في علم الأحلام وقارئ للطلائع والأسرار، عندما تراه كأنك ترى شخصاً قد رأيته من قبل.

- ولكن يا عم، إذ لم تره كيف وصفته كأنك تراه؟

- العمى عمى القلوب لا الأ بصار، فرجل في ريحان شبابه وعز جذعه يجب أن يدرك هذه الواقعة من الآن فصاعداً.

- حسنا، أين يقع منزله، سُوقٌ لي أنه بين هذا الزقاق - مشيراً
بأصبعه متذمّلاً حاله الشائب الكفيف - ولكن مع ذلك هبّ
الأعمى لتصحّحه والقول:

- ليس الزقاق بذاته وإنما ما بعد أخذود الطريق تحوّل يساراً
وستلمح منزله كما ألمحه بقلبي.

شكّره وذهب مع الوصف الجديد إلى الأخذود المتهالك.
سار بين الزقاق الغريب، وإذا بشخص غليظ الصوت يسأل:
- أنت يا رجل، هل يتساوى الغني بالفقير؟
كأنما صُفع على خده بسماعه لهذا الصوت الرجيم، في عتمة
الزقاق وهدوء الكلام وانعدام النوافذ يصدر هذا الصوت مع
جملتين مفاجئتين من اللامكان، تبادر في ذهنه أن شخصاً ما كان
يتّصّت له وربما يكون أحد السكان الطاعن في السن، الذي
طالت عليه السنين حتى أشابت حنجرته.

- لِمْ يَطْلُ الصَّمْتُ حَتَّىٰ رَدَ عَلَيْهِ:
- تَسَاوِي فِي مَاذَا؟
- لَوْ أَعْطَاكَ شَخْصًا ١٠٠ رِيَالًا، وَعْلَمْتَ أَنَّهُ مِنْ أَعْيَانِ الْمَجْمَعِ
الْأَغْنِيَاءِ، هَلْ سَتَشْكِرُهُ؟
- نَعَمْ!
- كَمْ تَسَاوِي الْمَئَةُ مِنْ نَصِيبِهِ الْكَلِيِّ؟ إِنْ مَنْ تَشْكِرُهُ عَلَىٰ
كَرْمِهِ، لَمْ يُعْطَكَ إِلَّا الْفَتَّاتُ الْزَهِيدُ، لِأَنَّهُ لَنْ يَخْسِرُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ
نِعْمَةِ الْزَّائِلَةِ.
- وَهُلْ يَخْتَلِفُ الْعَطَاءُ حَسْبُ الْشَّخْصِ؟
- نَعَمْ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، الْفَغْنِيُّ وَالْفَقِيرُ خَصِيمَانِ فِي الْأَرْضِ
وَالْآخِرَةِ. إِنَّ الْفَغْنِيَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَذْبٍ؛ صَدَقُوهُ وَقَالُوا مَا نَطَقْتُ
الْمَحَالُ، أَمَا الْفَقِيرُ إِذَا أَصَابَهُمْ قَالُوا لَمْ يَصُبْ وَكَذَبُوهُ ضَلَالًاً.
الْدِرَاهِمُ يَا رَجُلٌ تَكْسُوُ الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلَالَةً.
- وَمَنْ قَالَ أَنَّ الْفَغْنَاءَ فِي حِيَاةِ الْدِرَاهِمِ، بَلْ هِيَ الْلِسَانُ مِنْ أَرَادَ
الْفَصَاحَةَ، وَهِيَ السَّلَاحُ مِنْ أَرَادَ الْقِتَالِ.
- الْفَصَاحَةُ بِلَا دَرَاهِمَيْنِ لَا تَجْعَلُ شَفَّاتَ الْمَرْءِ مَكَانًا لِلْقُولِ،
الْفَصَحَّاءُ لَا يَسْتَمِعُونَ إِلَّا لِصَاحِبِ الْجُودِ الَّذِي يَكْرِمُ مِنْ يَجَالِسُهُ.
جَدَالٌ وَنَزْعَةٌ رَجُلٌ كَهْلٌ وَشَابٌ مَتَحْمِسٌ. عَمَّ الصَّمْتُ فُورًا بَعْدَ
خَاتِمَةِ كَبِيرِ السِّنِّ. أَمَا الْخَطَرُ الدَّاهِمُ فَكَانَ عَنْجَهِيَّةً عَلَوْقَهُ فِي
الْأَخْدُودِ!

إن جداله مع الرجل ذو الصوت الأخش كان طويلاً لبطء الكهل في الكلام وتردد الشاب في الردود والتأني فيها، لقد أخذ رحراً من الزمن لا يعلمه أحد، ولكنه بالتأكيد وقت يسمح بمرور الشاب للرصيف الآخر غير أنه لم يصل لنهاية النقطة، مع أنه كان يمشي بخطوات فضفاضة سريعة تجعله يقطع هذا الزقاق في ثوانٍ. أن ما حصل كان لا تفسير له.

وصل أخيراً للجانب الآخر فور انتهاء النقاش الحاد، وكأنه علق في دوارة منعه من الخروج حتى ينتهي صاحب الصوت الأخش حديثه.

بدأ يعاقب نفسه من الداخل عن سبب عدمية شعوره بثقل الزمن وهو يجادل الكهل، جازماً بأنه كان يرى الطريق، ولكنه لا يتذكر سبب تأخيره في الوصول! أكان أحد الطرفين يتلاعب بعقل الآخر؟

لم تطل معاقبة النفس حتى أزال غمته وأصر على التوجه نحو المامون وتمنى لو أنه لم يحلم، ومع ذلك دب في سيره إلى معروف زمانه.

على الرصيف وبعد موجة من الأسئلة الحائرة في عقله، قرر مناداة إحدى المارات من النسوة لكي تشير له عن منزل منكور زمانه، لعل نسوة المنصورة أعقل من رجالها.

- عذرا يا آنسة، أين يسكن المامون؟

كان السؤال هنا مختزلاً وبدون توضيح للمخاطبة؛ لعلمه بذيوع صيت المؤول.

مع ذلك لا يبدو عليها أي علامات استجابة. وفي لحظة التفتت عليه بدون قصد، وكان يظن أن الالتفات منها كان مقصوداً، لهذا قعد متلهفاً لردها عليه، ولكن لا حياة لمن تنادي.

حاول إعادة السؤال لعله يتمس إجابة، ظناً منه أنها لم تلقط السؤال:

- منزل المامون، هل تعرفين أي يقبع؟

وفي لحظة عامرة بالسكونية وتحديق مطول مع امرأة مغطاة بالكامل بالسواد من قدمها حتى رأسها، كان مريط الغرابة فيها أنها لا ترد على طوفان الأسئلة.

كل شيء تغير بعد أن أظهرت كتيباً ملصوق به قلم، يتوارى لوهلة أنها ستكتب شيئاً طارئاً وهذا حقاً ما حدث، أخذت ردحاً من الزمن حتى سلمت الكتيب إلى القارئ، فقرأ:

- من أختك الصماء والبكماء، لا تؤاخذني إذا تبرأ عليك تجاهلي لك. فأسأل ما تبغي.

- يكتب التالي لها: لا بأس فأننا من يحب عليه ليس ملبس العذر، ولتقليل الكلام عليك؛ هل سمعتي مسبقاً عن المامون، وأين منزله في هذا الحي؟

- ردت عليه بالمكتوب الآتي: مفسر الأحلام الشهير، نعم،
لطالما أرسلت له رسائل عن أحلامي حتى يؤولها، والمقابل أجر زهيد
على كل حلم، أما عن مكانه، أنما تجده على حجاجك الأيسر -
التفت على يساره للتأكد - ولون منزله أحمر غامق، ولكن الزمن
سرق بريقه واضعف صبغته حتى صار خافتًا.

شكرها على حسن كتابتها، ولباقة كلامها المكتوب،
وكان امتنانه أن رفع إشارة السلام بـكـفـ الـيدـ.

أنطلقأخيراً وخطا خطوات المستبشر حتى وصل لقعر منزل
المفسر وطرق الباب ولا مستجيب له. الذي لم ينتبه له أن الشمس
دخلت مرحلة الشفق واقترب الغسق الذي سيحل معه الليل الدامس،
لم يشغل باله بسرعة الزمن الجارحة، والوقت القاطع، وإنما أراد
الانتهاء من هذا الحلم وتفسيره والترحال لعائلته وسنته في بلاده.
بعد مضيء وقت ضيق، لم يجد مجيئاً لذا ذهب لإتمام صلاة
المغرب في مسجد شارع الأربعين والقريب من منطقة المنصورة،
وكان قد صلى الظهر والعصر في جوامع مختلفة نظراً للدلالـةـ الذي
كانوا يدلـونـهـ منـ منـاطـقـ مـخـلـفةـ.

أنهى الصلاة في الصف الأول من الجماعة ثم حدق عينيه يمنة
ويسرة، حيث الإمام أمامه، وبدأ بالتسبيح والخشوع في الأذكار،
لقد تزامنت الالتفاتة مع استحضاره لذكريات أوصاف من يبحث

عنه حتى يفسّر حلمه، أوصافٌ أدركها من باطن الكلام مع الأعمى ذي القلب البصير، إذ كان الإمام رجلاً ملتحياً بلحية بيضاء تعطيه مظهر الوقار والنبوغ، وهو المؤذن والإمام بالجامع وخطيب يوم الجمعة. والأهم هو نمطية المظهر حيث الثوب القصير والعمامة بلا عقال فوقها، سنة مصونة.

كانت هذه العلامات الآنية كلها تدل على شخص الرجل المطلوب، لهذا انتظر حتى نهاية الأذكار والتسبيح وهو يؤكّد في نفسه على أن المذكور غداً معروفاً، ونادماً على من قابلهم فلو أنهم ذكرموا مؤذن جامع شارع الأربعين...

بعد مرور ربع ساعة قام الشيخ ولحق به، أشار له عن رغبة بالحديث معه:

- شيخنا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هبّ لي أنك عليم بما تخفي الأحلام.

- وعليكم السلام، نعم، أنعم الله علينا بمعرفة خبائياها. هل تملك نصّ الحلم مكتوبًا؟

مع اقتراب الغسق ومبادرته بإتمام تفسير الحلم إبان تحركهما معاً، تفاجأ بأنه نسي معظم الحلم ولم يبق إلا الفتات:

- شيخنا، لم أكتب الحلم على ورق، وإنما غرتني نفسي بأنني قادر على حفظه، وصدّمت بنسيانيه.

- لا بأس، فتات أجزل من لا شيء.

- لو تمنحي وقتاً لاسترجاع معظمه سأدعوك بالخير، شيخنا.
بادر باستضافته في منزله العتيق الحالي من الحياة في خارجه:
- إدأ، اقدم على منزلي، لفنجان قهوة. لعل هذا يحمي ذاكرتك
على الاستحضار.

وافق، وهم بالدخول لبيته، ما لاحظه هو أن للبيت أوصافاً أخرى، سقف المنزل مديد يمنع إطلالة الجيران من التحديق في أهل المنزل، الدهانات من الداخل حية وناصعة أكثر من الصبغة خارج المنزل، مروج يمنة ويسرة من المنزل، ربما تكون هذه من طبائع الزهد الازدواجي؛ كن فقيراً مع الغير وغنياً مع النفس، انصبح غيرك بالتشهد وأبناءك بالشهادة.

خارج المنزل وفي لباسه يتبع رجل لا يجد زاداً يسد به ضمور بطنه، ولكن داخل المنزل جنة خضراء؛ تذيب عقل الشاهد.

دخل لحجرة استقبال الضيوف وكانت دعاسات الأحذية وسجاد المدخل من فخر الصناعة التركية، أما سجاد الحجرة بلجيكي وبكل جدار، المسائد والمتكات من عجائب الحرفة السورية.

أثناء الجلوس، ذهب المفسر لحضور القهوة مما أتاح الفرصة للناسى محاولة تذكر الحلم بأكمله، وفي غمرة محاولاته تذكر أمراً حُفي عليه عندما حادث الرجل ذا الشعر الواهن على حسب ما ظنه، وإنما بالتحديد بيت حُفي عنه، ولم يتذكره إلا الآن.

في وقت مصادفته للفصيح في أول الرحلة للبحث عن مفسر يفسر رؤياه، أجاب عن الباحث عن إجابات ببيوت شبهه شعرية، انضج في هذا المجلس وبعد عصف ذهني أنها كانت ثلاثة أبيات حيث الأخير رجع للحياة بعد فقدانه!

استرجع المحادثة بينه وبين الشاعر، حيث سأله عن المؤول وشهد له بالعرفان من الجاهل، والإبصار من الأعمى، والسمع من الأصم، حتى أكَد على قدرة الأبكم على محادثته، أما اللغو الناقص والبيت المحرّم هو: ومن قاسمهم ضمنوا حلمه الأعتى!

ذكرى دارت رحاهَا في مجلس عتيق محجوب عن العالم الخارجي. كان اليوم بـأكمله منذ الظهيرة حتى الشفق مليئاً بالصـعاب والناس العجبـاب، تجعل المرء يحيد برأـيه عنـ كانـ ما يـخطـطـ لـنـفـسـهـ مـسـبـقاًـ،ـ وـهـذـاـ مـاـ فـعـلـهـ؛ـ اـضـطـرـ لـلـقـعـودـ فيـ المـلـجـسـ وـقـارـأـ لـلـشـيـخـ حـتـىـ يـسـقـيـهـ الـقـهـوةـ وـيـرـتـحلـ لـأـهـلـهـ.

طال بـقـاؤـهـ فيـ الـحـجـرـ الـفـاخـرـةـ حـتـىـ جاءـ الفـرـجـ أـخـيـراًـ،ـ هـمـ الشـيـخـ بـالـدـخـولـ مـعـهـ مـاعـونـ قـهـوةـ وـشـايـ،ـ الشـايـ كـانـتـ إـضـافـةـ يـضـيـفـهـ صـاحـبـ النـزـلـ لـلـإـشـارـةـ عـلـىـ كـرـمـ المـضـيـفـ لـضـيـفـهـ،ـ وـقـدـمـ الشـيـخـ فـنـجـانـ الـقـهـوةـ:

- تفضل، وإنـاـ بـطـرـحـ حـلـمـكـ،ـ وـالـلـهـ الـمـوـفـقـ.

لم يـفـقـهـ فيـ بـادـئـ الـأـمـرـ مـغـزـيـ الـجـمـلـةـ الـمـحرـمـةـ،ـ وـعـلـىـ كـلـ حـالـ فـلـقـدـ ئـسـيـيـ مـعـظـمـ الـكـابـوسـ حـتـىـ اـخـتـفـتـ مـعـالـمـهـ وـاـضـمـحلـتـ مـيـولـهـ

لتأويل الرؤية، وإنما فاجأه المفسر بالمبادرة ليُعجل من إقامة زبونه لغرض التفسير، وأيضاً لكسب لقمة عيشه من تأويل الأحلام. لم يذكر للمؤول قط الحلم على الإطلاق؛ وإنما أتخد من الهرب طريقاً قويمًا له. إن الكذب عادة سيئة محرمة، ولكن قد تفلح إذا كانت كذبة بيضاء.

- شيخنا، إن حلمي من أحلام العامة البسيطة.

- أذكره لي.

كما صار في بداية دخوله المجلس، سقط عنه معظم الحلم حتى لم يتذكر منه سوى كونه حلماً سيئاً.

- حلمتُ أنني أغنى من في قريتي، ونصبوني إماماً لطفيان ثروتي على الجموع من الجمهور، وإذا بي أخلف نمروداً بالحكم وسلامان بالجن.

قرر تبسيط الحلم وتقديم حلم بديل يحلم هو به، لطالما حلم هو بحلم كهذا رغم أنه لم يتوار له في أحلامه حلم شبيه بما يتمنى ويتوجس.

- نعم، ستكتشف كنزاً في مسقط رأسك، كنزاً يجعلك أنت ومن يخلفك أغنى أغنياء الدنيا. والله أعلم.

- جُزيت خيراً، أتمنى من الله عز وجل أن يقبل منطقوك، لكن أظنه حلم عابر، مثله مثل أحلام ماتت هي وأصحابها.

- الحلم يموت صاحبه قبل أوانه، العمر هو العدو اللدود للأحلام؛ لو عشنا مئات السنين لتحقق أعنى الأحلام تحقيقاً، ولكن الموت أسرع من الحلم، على هذا الأساس لا تستبعد تتحققه له، فقد يركض لك الحلم أسرع من الموت!

- لا أعلم، ولكن أنا ممتن على هذه الجلسة ولا أرغب بالإطالة عليك، كم هي أجرتك؟
- عشر ريالات.

أعطاه عشر ريالات عليها صورة المشاعر المقدسة التي تمت طباعتها منذ فترة قريبة في عهد جلالة الملك فيصل، وكاد أن يرفضها بلا سبب وجيء.

الآن وبعد أن فسر المفسر الحلم المعسر له، الحلم المختلق الذي لم يحلم به في منامه، وإنما طرح حلمًا عتيقاً كان يبتغيه من صغره، حلمًا لطالما أراد تتحققه، لهذا سبق نفسه بقول الحلم غير الموجود وترك أقدر الرؤى تموت ولا يبقى لها آثر ولا أثر.



الفصل الثاني

أحلام سخية ولكن عتية. حلم نمرود وجن سليمان أوهام تمنى لو أنها حقيقة، رغم تحفظات الحلم في أن أصحابه كانوا من جبابرة الأرض ولا مثيل لهم في تواريХ البشر جموع، النبي سليمان سخر له الله الجن حكراً عليه عندما أخبروه بقدرتهم على سلب عرش بلقيس المرصع بالذهب والزمرد والمكال بكل الأحجار الكريمة.

أما نمرود طاغية أرض بابل والذي تجبر وطغا في الأرض كمثل فرعون، فحلم كهذا صعب المثال لكون سليماننبي مرسل وهذا امتياز لن يحصل عليه أحد، أما لو أراد التشبه بنمرود الطاغية الذي أرسل الله له ذبابة إلى منخره جعلته يضرب نفسه بالمرزبة أربع مئة عام حتى فنيت عظامه؛ فهل يتمنى الفرد عاقبة كهذه؟

بعد خروجه من منزل الفقيه المسؤول للأحلام، انطلق صوب بلدته التي تبعد أكثر من سبع مائة كيلومتر من العاصمة، في رحلة ستأخذ منه مدة تصل إلى ثمانية ساعات، من الغسق حتى الفجر.

مر على أقرب محطة تعبئة للبنزين على طريقه ليملأ خزان الوقود، ومنها يأكل وجبة لكونه لم يأكل منذ جلسة الصباح مع زميله. أوقف السيارة عند مسار التعبئة ونزل يخطو الخطى إلى مطعم يقدم وجبات الغداء، وطلب نصف دجاجة مشوية تغنى صاحبها عن

ضمور البطن مع أرز على الطريقة البخارية وزجاجة صودا بتكلفة إجمالية تصل إلى سبع ريالات.

أنهى طعامه وهلَّ إلى مركبته البهبهاني العتيقة طراز جمس من فخر الصناعة الأمريكية الصلبة، وانطلق بخزان وبطن ممتلئ. في إبان الرحلة بدأ يتذكر الثالث العجاف، والجملة الأخيرة من القوافي التي انهَّلت عليه، وهل حقاً ابْتَغَى حلم الجبابرة، أم أن هناك أمر سقط سهواً عنه؟

هواجس بدأت تتملَّص في أدنى الليل وفي الساعات الأولى من الرحلة ولا جواب أو مجيب لها. من هاته الهواجس ذكرى طرأت على باله وهي نصيحة والده عن الترحال في الليل وما فيه من عيوب قاتلة. ينظر العرب للليل نظرة مغایرة، أقاويل منها ربانية ومنها شعبية مثلما قيل في الكتاب الشريف، وجعلنا الليل لباساً والنهار معاشاً، والليل صحوة بواطن الأرض. وعموماً في مكان ما من الليل ثمة إنسان يفرق.

لا معاش في الليل للناس؛ والدليل هو أن كافة الأعمال والأرزاق وقتها الصبح.

الدليل لا يعد أمراً دالاً على الخير، فكل الخدع والأمور المريبة تحدث وقته، جرائم القتل، السرقة، قطاع الطرق. حتى في قصص الأولين كان الليل وقت الحشاشين، فعندما أرسل النبي الصالحي عبد الله بن أبي سعيد لجلب رأس خالد المذلي كريه المنظرة، أتاه في

نهار في زي ملاك يدعى الشِّعر والمبايعة وحقاً كان شاعراً من شعّار
جهينة، قطع رأسه وسرى به ليلاً وفي النهار ينام لعلمه أن النهار
طريق غير محبب عندما تخالف القانون وتقطع الرؤوس، وفضل
الليل لما فيه من قبول لهاته الأفعال، والأهم لا يبصر حركة
النفس.

حقاً الليل لباسٌ تبيت فيه كل المخلوقات ما عدا الخبيثة منها
كالثعالب التي تتغذى على الدواجن، والذئاب الجارحة التي تأكل
الأغنام، والعقارب والأفاعي التي تلسعك حتى لا تجد مخرجاً منها
غير امتصاص السم بنفسك إذا قدرت، وكافة الآفات اللائي
يفضلن الظلمة الدامسة؛ فهو وقت له خباثةُ الْخَاصِّونَ وأصحابه
المتمرسون.

ما عدا الصباح ذو المعاش الذي تصحي فيه المخلوقات المعتدلة
كالطيور تهبُ لتغذية صغارها، العصافير تزقزق في الصباح حتى
تهلل بقدوم الصباح، والديك يصبح للتنبيه بحلول الفجر، والبلبل
يفرد ليطرب المستمعين، والحمام يهدل إشارةً إلى أنه يفضل هذا
الغصن، والبقر تثغو من الجوع، وبنو البشر إذا استووا؛ خرّوا عن
المنكرات والأفعال المشينة كالسرقة والنهب، وقطع الطريق على
المسالمين، والتعدي على أعراض الآخرين، فيكون الصباح معياراً
على رجاحة عقول الراشدين منهم، رجل المرور ينظم المرور وقت

الزحام إبان أوقات العمل، والأستاذ كاد أن يكون رسولاً لقيامه في الصباح والنوم يطفو عليه لكي تصل رسالته العلمية إلى طلابه. أما بالنسبة إلى المسافر، فقد قطع مسافة ساعة من الزمن على طريق الرين المؤدي إلى مسقط رأسه، سارحاً على من حوله، هدفه هو وصوله إلى محيط منزل العائلة، وفي لحظات غامرة بالسرحان وشبه نسيان للواقع، أظهرت أنوار السيارة رجلاً يشير في جانب الطريق بيديه إلى المركبة حتى تتوقف من أجله.

إن زمن السبعينات في المملكة كان العصر الذهبي لقطاع الطرق، وكانت سمعة أهل البادية - في قطع طرق القوافل والحجاج ونهب ما لديهم - تذاع في الأرجاء، ولكن رغم السوابق والمحاذير التي لم يعر لها اهتماماً، أصر على التوقف لعاشر السبيل حتى يعرف وجهته ويقرر حينها أخذها أم لا، وعندما أنزل الزجاج يدوياً رأى رجلاً ملتح، يصعب تحديد عمره في ظلمة الليل الطامسة.

على كل حال بدأ في رمي الأسئلة عليه:

- إلى أين الوجهة؟ إن كانت على مسارى الذاهب للخرمة فهل
بالركوب أما لو كانت منطقةً أبعد من مسارى أو تخالفه
بالتحريف، اعذرني على رفضي لو أبيب.

- أنا في ذاك المكان، عند الجبال، أعلى التلال، أدنى السهل.
لقد غناها وكأنه يلقي شعراً جزلاً، لا حيز لشخصٍ يلتزم
بالشعر في أجوبته من الناس من أول وهلة من المقابلة أو المحادثة إلا
لو ما كان شخصاً مميّزاً عن البقية، حتى ملابسه الذي سيكشف
عنها ضوء الشمس الفاضح، ستشهد عليه بالعتاقة، هذا مع
احتمالية توطن الرجل في أقصى البادية بعيداً عن جماهير الناس
وأعينهم، وربما لراته الأسباب أصبحت مهاراته التواسلية شاذة عن
البقية.

- لا أعلم مقصدك! على طريقي العديد من الجبال وجموع من
السهول، هذا ونحن في الليل من المستحيل أن تستبين الجبال إلا بعد
الغسق في مطلع النور وقت الفجر.

- دعني أركب معك وعندما أراه سأشير له.

- أقصد بعد مطلع الفجر ستشير لي عليه؟

لم يجب عليه في هذا الشأن، ولا مجال للتراجع الآن، ركب
غريب المنظرة حاسباً أن قائد المركبة وافق على ركوبه المركبة!
مع ذلك لم يبال بهذه الفظاظة محسناً الظن فيه، والعلة أنه لا يعرف

من وجهته شيئاً سوى الجبال المطموسة ليلاً، وكم من الوقت
سيأخذ حتى يشير، وهل تظهر منطقته في الليل أو في مطلع
الفجر، مع افتراض ظهور أرضه في أوج الليل، أسيشير على سهله في
وقتها!

مع ركوبه، أخذ شداده المزق الذي يكاد يتفتت من عتقه
وقدمه حيث يحمل فيه أغراضه من ملابسٍ وربما طعاماً أو حتى
سلاح لا أحد يعلم ما به، ثم وضعه على حوضه.

لم يهمز بكلمة أو حتى يلوح بعينيه يمنة ويسرة وإنما كان ثابتاً
كجبل أحد، التزم بحاله حتى بادر بمحادثته رغبةً في معرفته لا
أكثر، واستهل عليه:

- ما اطلعنا عليك.

- حوقان.

- ومن أية العرب أنت؟ ومن الرشایدة أنت؟

- أنا من قبيلة يام، حوقان اليمامي.

ربما الانطیاع الأول عن كونه فقيراً؛ دلّل على قريه من
الرشایدة، التي تعد من أكثر القبائل الفقيرة في الجزيرة العربية
مقارنة مع من غيرها، لكون بعضهم لا يملكون الجنسية الرسمية،
وعلى هذا لا يحصلون على حقوق المواطن المكتوبة، وربما
استيطانهم في الريف بدل المدن التي تعج بالحركة والحياة من
أسباب فقرهم وقحطهم.

- وأين هي دياركم؟

ـ معقلنا هو نجران والكل عارف بذلك، ومن يجهلنا نعلمه.
كان رده الأخير من الوقاحة ولكن متوقع بتأثير من الشهامة،
ولعل مكانة قبيلة يام تتساوى مع القبائل الأخرى، هذا أيضاً أن
هذه القبيلة لها أقليمها الخاص في جنوب السعودية، على هذا الأصل
كان من الأحسن ألا يطرح سؤال مبطن بالنمطية، في حضور رجل
لكيع كهذا.

الواقع يقول أن طارح السؤال يجب عليه تدارك الخطأ الجسيم
والاعتذار أو مدح القبيلة كاعتذار غير مباشر، ولكن خالف
الأصل وتجرأ حتى طرح سؤالاً حرجاً :

ـ يتحدث القليل من العامة من الناس عن قبيلة يام فيما يخص
المذاهب الدينية وأنا من هذه القلة وربما السبب في هذا أن المؤسس
للدولة السعودية الثالثة الملك عبد العزيز عقد اتفاقاً مع قبيلة يام بـألا
تدخل الدولة في مذهب القبيلة، وعلى هذا فإنهم استطاعوا
التكيف مع القبائل الأخرى، والأخيرة تكيفت معهم.

ـ وماذا سمعت عنّا؟

ـ قيل عنكم أنكم تسيرون وفقاً للمذهب الإسماعيلي، وقيل
العكس في أنكم تخطون خطاكتم على المذهب السني، فما
الصحيح من القولين؟

- كلا القولين صحيح، جمیعنا رجالاً ونساءً من سنيين
وإسماعيليين نعبد الله وحده ولا نشرك بغيره.

- لكن، أتوقن أفعال الإسماعيليين من أيام؟ فهم يتبعون المذهب
الشيعي الذي ينادي بكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين،
ويرفضون أكثر الحجج السنوية، مثل الصيام والصلوة والحج كم
ذكرت الأحاديث الشريفة. ويحتاجون بأن صلاة السنيين تشبه
أصنام العرب في الجاهلية مثل العزى واللات والمناة والطاغوت
وغيرهم.

- الشيعة اثنا عشر فرقة، ومما ذكرت، فهؤلاء من أصحاب نزعة التطرف.
 - أي طائفة من المسلمين تختلف السنة وتقذف صحابة النبي؟
 - النوع المتطرف، أما ما يخص مسائل العبادات، فلديهم حجج في أن أكثرها لم تذكر في القرآن أو في الكتب الممنهجة الدقيقة، ويحتجون بالبخاري وهو بشر قد ينسى ويغفو، والأهم أنه قد يأخذ أحاديث من أناس ليسوا بمثل كفاءته العقلية، فالناس قد تحرف وتحور أحاديث وتعطّلها له.
- ويستكمل كلامه:

- ماذا عن قاذف الصحابة والخلفاء الراشدين، من يتهم عمر باللوطية وعائشة بالزنا مع تبرئتهما في القرآن وتبشيرهما بالجنة؟
- كانت جرأةً حادةً أن يذكر شخصاً مواضيع حساسة كهاته، وربما أثارت غضبه كونه يرفض التعصب المذهبي، وقد اتضح انزعاجه عندما رد، بنبرة حادة غير معتادة:
- جهله الشيعة كما قلت.

فهم مقصده وتوقف عن هذه السجالات واستمر في القيادة في صمت استمر حتى الفجر. أتى موعد الفجر ولم يهمز بمنطقته السهلية التي صورها في وصفه، قطعاً مسافة ثلاثة ساعات وتعدوا جبال القويعية والنخيلان اللتين ربما يكونان مجرّه، مع ذلك ربما يطمر على الخاصرة ذات الجبال الكثيفة وهو لا يزال جاهلاً

مكانه، أو في أسوأ الأحوال أن يكون مبيته أبعد من دياره، وهو في نهاية النطاف ملزم بإيصاله.

أتى موعد آذان الفجر وشاهدنا محطةً على جانب الطريق، فيها مطعم ودكان وخدمة تعبئة البنزين والأهم هو المسجد، استهل في اقتراح الصلاة أولاً ثم الإفطار لاحقاً:

- نصلي ثم نخفي ضمور بطوننا بالإفطار، وقبل ذلك فالإفطار على جعيتي.

- الصلاة أمرها هين ومكتوبة علينا، أما الإفطار فأنا لا أفتر وإنما أتغدى وأتعشى، وعموماً كرمت على حسن الضيافة.

كان رده غير متوقعاً فلا يوجد أحد يرفض الطعام وخاصةً رجل نحيلُ الجسد، عظام وجهه تكاد تبين خلفاً على نسبة الدهون الضئيلة في جسده، مع ذلك رفضُ المكرمة يعد عيباً عند القبائل ونقصان على المضيف إذا رفض أحد زاده:

- لن اسمح لك **بالمضي** بدون طعام، ومكانتنا يبعد ثلاثة ساعات، هذا وربما أنك تبعد أكثر من ذلك، وعلى دينك بألا تذهب أنت إلا وقد أكرمتك، وبدونك لن آكل ولا صاعاً من الزاد، فهلم معي على المسجد وبعدها على الفوّال.

- هذا من كرمك، وأعانني الله على رد الجميل.

دخل المسجد وقعدا في الصف الأول، وإذا بأحد العماله يقيم الإقامة ويختمها... لا إله إلا الله، عند الانتهاء نظر لرفيقه الواهن بنظرة تقليدية يقصد من هذه النظرة عموماً في كافة الأحوال أن يكون المنظور إليه في هذا المشهد إماماً على المصلين - وهذا ما حدث فعلاً - يصلي بهم ركعتي الفجر، كبر واستهل الترتيل في سورة الأنعام كاملة في الركعة الأولى أما الثانية كانت سورة الجن - إذ يتعجب المرء كيف لرجل بسيط وبدائي المظهر وقليل العلم، أن يحفظ سورة كاملة ويلقيها - كانت قراءته ترتيلة بشدة وبسببيها أطيلت الصلاة فوق العادة، وإطالة الصلاة ليست فعلاً مكروهاً إلا عندما تكون في ردي ومكان أصحابه عجلون في أمر لا صبر عليه

بمثيل من لديه عمل وسفر وكل بظرفه، فالدين يسر وليس عسرًا على الجماعة.

رتّل الإمام سورة الجن كاملة وعندما كان في بداية الآيتين من سورة الجن:

فقال في الآية الأولى: قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمِعُ نَفْرَ مِنَ الْجِنِ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً - وخرج القارئ عن سورة الجن ثم قال إِنَّا حَقّاً سَمِعْنَا العجباً!

رجع إلى سورة الجن بعد أن سها عن الترتيل حتى وصل إلى الآية الثانية الناصة على: يهدي إلى الرشد فآمنا به ولكن نشرك برينا أحداً - ثم يؤكّد الإمام خروجه عن الآية بقوله، إنه الله لا إله إلا هو!

من اللامكان يخرج رجلٌ مجهول الهوية بصوت كهل يقاطع المشهد بتفسير ما حدث، حيث يطرح تعليلاً بسيطاً من جهل الواقعه. يروي هذا المسن حكاية قصيرة عن سورة الجن التي نزلت على من غُنِون اسمهم في السورة ذاتها، حاولت الشياطين في زمان النبوة تجسّير السمع بين أسرار السماء وبينهم؛ فأرسل لهم المولى شهاباً حال دون استراق السمع منهم، حتى رجعوا مدبرين إلى أقوامهم وتعجبوا من الفاعل، بعدها أمروا بالانصراف في مشارق وغارب الأرض بحثاً عن السبب، حتى وصلوا إلى سوق عكاظ وإذا بهم يجدون النبي يصلي الفجر بال المسلمين، وتعجبوا من القرآن؛ فقالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجباً، وآمنا به.

أنهى الصلاة وقام يصلي ركعتي التسنين، وعيون المصلين عليه
أينما يذهب من قيامه وجلوسه حتى خروجه من المسجد؛ لأنهم لم
يعرفوا شخصاً خرج من ترتيل الآيات ونطق بغير كلام الله إلا هذا
الرجل، فالبعض ظنوا أنه تأثر من الآيات وسقط سهواً حتى أنجرف
في طريقٍ أخرج أغاضه عن الترتيل الصحيح - مع أنه أخطأ مرتين -
والبعض حسّبوا أنه ليس من متبّعي مذهب السنة، وآخرون شكوا
في ظهور بدعة جديدة في جزيرة العرب.

كان من يقلّه من الفئة الأولى الظانين بتأثر الإمام، فسألَه بعد
خروجهما من المسجد:

- أتضحت عليك علامات الحزن في كلماتك، بعضٌ يعبر بحزنه
بثلاث طرقٍ، الأول بيديه وهذا أضعفهم لقلة الحجة، والثاني بلا سانه
وهو أشجعهم لفصاحته، والثالث بقلبه وهو أخطرهم؛ فهو من يحمل
الضغينة لك أجيالاً خلف أجيالٍ كمثل العداوة التي شُحِّنت على
قراة ٢٦ عاماً من بني كنعان على يهود إسرائيل الغزاة والمحليين
عندما أسسوا دولتهم الواهية. الناس تموت أما الأفكار تبقى. وعلى
هذا فأنا كنت أفضل لو أخفيت تأثرك؛ حتى لا تدخل في دوامة
التشكيك التي تهوي بك إلى التكفير من العامة وتجد أشخاصاً
يلتمسون لك العذر مثلي وأخرين يلتمسون لك الشر.

- لم أقدر على ذلك، هذا أمر جُبِّلنا عليه من عصور.

انتهى النقاش هنا، وتوجهها إلى المطعم على وعيه التقطير،
لكن أصر هو الأخير على طلب بسيط وهو أن يفطر لوحده بعيداً
عن الآناظر:

- بما أنك تكلفت على نفسك وجبة الإفطار، وجبرتني عليها وأنا لست من محببيها، على أقل المطالب؛ اسمح لي بالإفطار بمفردي، ولا أقصد الفضاظة من بعد عنك؛ وإنما لي أسبابي.
- لا أقدر على ردك عن طلبك، لكن عدنى بأنك ستتهي إفطارك.
- سأنهيه ولو بعد حين، أغدقتك على بكرتك وأعاني الله على رده لك.

كان هذا الحديث سابقاً لطلب الطعام، بعدها طلبا صاعين من الفول وقطعتين من الخبز المقرّ، اخذ صاع الخبز وصحن الفول الخاصتان به وخرج من المطعم حتى شك الآخر أن هذه ستكون آخر لحظة بينهما.

قبل أن يسلم هو طلبه قرر جس النظر عليه حتى يتتأكد من نيته في أكل الطعام وفعلاً حدث المتوقع عندما رمى الطعام على الأرض ليأكله رهط كلاب أمامه، ولم يكتفي بذلك، حيث أقدم على نهب عظام كانت بعضها الكلاب ووضعها في شداده.

وكان من العجيب أن شاهد معه فرداً آخر على شبيهته وهيئته، رجل قديم الملبس وكثيف اللحية، وتباهى عليه علامات الهوان، يجادله وكأنه يعاتبه على سرقة عظام الكلاب.

شح بنظره من موقع الواقعه مصدوماً من هذا السلوك الغريب ورجع المطعم مرة أخرى حتى يتسلم طعامه ولم يطل في إنتهائه، ففسل يديه وخرج من المطعم أخيراً.

تفاجأ أمام عينيه بوجود من راقبهما مسبقاً؛ تصنع عدم معرفته بالواقعه الشاذة بأنه لم يأكل طعامه إضافةً على نهبه عظاماً لا غرض منها كانت بعضها الكلاب الجائرة وربما المسورة!

امسك بيده من كان يعاتب رفيقه فيما مضى، ونصحه بأن يأخذ حذره من يصاحب، فقرن الشيطان يغطي المنقطة في نهاية المطاف. وعندما ولى ظهره، سقطت منه قلادة مرصعة بالمرجان، حاول اللحاق به داخل المسجد، وعندما دخل عليه، لم يجد سوى ملابسه العفنة المتراكمة فوق بعضها.

رمي الطعام كانت خسارة مالية لا أكثر على صاحب المكرمة وكرماً لا يقدرها الضيف المكرم، لكن سرقة العظام النتنة أمر أكثر جنوناً فلا أسباب تفسر أفعالاً كهذه على الأطلاق! مرّاً سوية موقع الطعام المهدور ووجدها أكلً من الحيوانات المشردة، على الأقل أجرٌ هدر على الحيوانات. كان على السوي بينهما قطع الشك باليقين بما سيفعل الآخر بهذه العظام، طلب من حامل العظام عندما رجعوا إلا المركبة أن يحضر هو الأخير إناء الماء بسعة ١٦ لترًا للطريق حتى يغتسلون عن مشقة البحث عن الماء وينجيهم من العطش.

كانت الخطة موفقة عندما وافق هو على جلبه، ولكنه تغافل وذسى شداده في المرتبة الجانبية وهلع نفسه إلى الدكان ليحضر ما طلب منه.

الآن أتيحت الفرصة للتقييّب عن أغراضه ومعرفة الخبايا، فتح الشداد ووجد العظام متاثرة، بعضها قديم حيث أكلت أجزاءه وما زالت عليه آثار الأنياب العاتية التي ربما تكون من فعل حيوان، أما عظام اليوم فكانت حديثة، إنه حقاً منظر مرير!

تعمق في التفتيش والزمن يحاربه، حتى وجد دفتراً، فتحه ثم كشف عن كتابات بلغة ليست عربية، ورسومات من أساطير الأولين عليها مخلوقات بشعة، قلب الصفحات فوقع على خريطة تدل إلى شيء اصطلاح على تسميتها بمنطقة الديوخي التاريخية حيث

كتب بالعربية فلم يقدر على استيعاب مضمون الخريطة، غير أنها تدل على أمر لا يفقهه، أخيراً تيقن أن الرجل الذي معه ساحر وقد يضره، حيث العظام الشبة المأكولة من غير البشر محملة في شداده، ودفتر عليه كتابات وكأنها طلاسم خبيثة، وخرائط مجهولة.

الآن على ناصية الطريق مرت دزيتتان من الدقائق منذ هروبه من المحطة على طريق مكة، حيث إن مفرق الخرمة اقترب منه؛ وهذا سيغير اتجاه الطريق، وسيجلب الراحة للراكب لعلمه أنه قطع شوطاً طويلاً عن المحطة، إنما المشكلة التي لم تطرأ على باله أنه قال لجلاده المحتمل، موقع منزل عائلته، لكنه لم يعر في تلك اللحظة حين وقت الهروب للمشكلة أية خاتمة.



الفصل الثالث

الآن على مفرق الطريق الذي سيهوي به إلى مسقط رأسه حيث تقع عائلته هناك، وإنما الآن قد بَعُد عن صاحب الشداد مسافةً معقولَةٌ، وحان الوقت للبحث عن إباء ماء بديل عما سبقه بعدهما فضل سلامته، وهذا هو الأصل في كافة الأمور.

بعد ردح من الزمن، لمح محطة على ناصية الطريق، فتوقف حيث تتوفر فيها التموينات المستمرة، دخل الدكَان حتى يحصل على مبتغاه وقرر أخذ الإناء الذي تخلَّ عنها مسبقاً لينجو من محنَّته، ورجع إلى سيارته، وعندما ركب إذا برجل يطرق عليه زجاج النافذة من جهة قائد المركبة:

- السلام عليكم، أنا عابر سبيل تقطعت علي سبر السفر ولم أجد من ينجيني.

عاير سبيل آخر ولكن بشَكْل راقٍ لا يجلب الريبة، شماعٌ من طراز دم الغزال، ثوبٌ الطهارة فيه تطفى على العتاقة والنجاسة، والأهم هو كلامُ رزين يبعد الشبهة عنه، حيث يقنع المصفي له بأنه رجلٌ محترم لا يؤذِي حتى البعوضة.

- أين هي وجهتك؟

- الخرمة.

أبعد الشداد وأزاح عنه إماء ووضعها في الوسط بينهما،
وعندما ركب الراكب أشتد ناظراه على الشداد وكأنه يعرف
أمراً يخفي على الكل، ولم يقاوم الضيف نفسه حتى سأله عنده:
- إن هذا شداد قديمٌ نديم، وأنت رجل رزينٌ قويٌّ، كيف
وصلت إلى هذه الحالة التعيسة؟ أظنك قابلت الأشخاص الخطأ في

حياتك، كل ما أخبروك به ربما يكون مخالفًا لمنطق الحياة.
رجل فضوليٌّ ووغرد كما ظنه، كانت تدخلاتٌ عمياء منه في
أمور لا تخصه، ولقد كانت شخصيته مناقضة لقريره عابر السبيل
الماضي الذي لم يسأل المصفي له حتى عن مذهبة، وعلى هذا رد
عليه بنبرة حادة:

- ليس من شأنك، أخذتك معي رفقاً بك، ولكن هذا لا يعطيك
الحق أبداً للتدخل بتفاصيل الأمور، فهلرأيتني أسألك عن سبب
مجيءك لهذه المحطة؟ وعن اسمك؟ أو عن حداثة لباسك؟ والأهم عن
وجود رجل في مظهر متألق بدون سيارة تهوي به إلى أين يبتيغي؟ يا
رجل إن تواجدك في هذا الزمان والمكان على مظهر متكامل في
محطة متهاالكة يثير الريبة، ولكن التمس لأخيك المسلم سبعين
عذراً.

- اسمي مرجان اليامي، ولكن إن لم أكن مسلماً - مع نبرة
ضاحكة خبيثة - هل ستلتمس لي عذراً؟

لقد كان سينفجر عليه غاضبًا بسبب سوء سجيته ولكن في رمشة عينٍ، صدما دابة من الإبل الجائرة، وكل شيء انطفأ كلياً في عيني الراكبين، وحسن حظه لم يكن انطفاءً يرفع بصاحبه إلى الفردوس الأعلى أو يهوي به إلى جهنم في نهر اللعنة المميت.

صحا صحوة مؤقتة فوجد الناقة - في وسط الجيب الرفيع - ترفس آخر أنفاسها، إنما واحد منها لم تنطفأ عينيه بل كان في صحة وعلى ما يرام، حيث ينتزع العظام منها ويأكلها من بطن الدابة الحية المسكينة، في مشهد لا يحصل إلا في غابة حيث الأسود مفترسون والغزلان فرائس! إنما ما وجده كان كفيلةً بأن يسبب له نوبة هلع تفقده عن الوعي نهائياً.

صحا في مستشفى عتيق متهالك في قرية الحفيرة وهي منطقة أصغر من القرية، قريبة من الخرمة التي لا تبعد إلا ساعة ونصف من الحفيرة، وجد نفسه في سرير في غرفة ضخمة كل سرائرها خالية، حيث الشاش يغطي بعض أعضائه، والصلقات الطبية محاطة على ندب في وجهه في أماكن تمت خياطتها، لقد كان لوحده حيث الشداد لم تكن معه ولا صاحبه الذي التقاه في المحطة فأخذه معه نحوه، كان في حالة شبه فقدان للذاكرة، حتى ظن أن الراكب الذي كان معه ربما يكون قد توفاه الله.

ارتاد من الوضع الحالي حتى حاول النهومن للبحث عن الشداد ورفيقه سيء الخلق، وعما حدث ما بعد الحادثة، لكن لم يستطع

النهوض من آثار الحادث المميت الذي لم يُمْتَ صاحبه، فمن حسن حظه أن الإصابة لم تُصِبْهُ بآفةٍ مميتة تشهه عن الحركة أو في أسوأ الأحوال تقتله. إنها معجزة أن ينجو الإنسان بمثيل حادث كهذا! في فترة توجسه وتذكره لذكرى الحادث المريض، لم يقدر على تذكر أي أمر سوى آخر لحظة من الحادث عندما وقعت الواقعة وكان غاضبًا من الراكب المعتوه، وفي أثناء التذكر دخل عليه الطبيب مع المريض ليطمئن على مريضه في نوبة عمله:

- السلام عليكم، كيف تشعر الآن؟
- لا أعلم ما أخبرك به، ولكن هل إصاباتي خطيرة؟
- لم تظهر التحاليل والأشعة السينية أية أضرارٍ مستديمة، كل ما تعاني منه هو شعرة في معصمي اليدين ورثوضٌ موزعة على كافة الجسم، سنصرف لك مورفين لتخفييف الآلام وтخرج حسب حالتك عندما نقرر ذلك.
- أنا ممتن لك يا...يا...
- الدكتور مصطفى الكرامة.
- دكتور مصطفى، عندما وقعت الواقعة، كان معي شخص حملته معي من محطة تعبئة البنزين، اسمه... لا أتذكر أسمه الأول لقد كان من قبيلة يام، رجلٌ حُسن المنظر...

- يا أخ جمعان، تقريرُ الحادث لم يذكر وجود أحدٍ معك، ربما هذه من آثار الحادثة، فقدانٌ جزئيٌ للذاكرة واضطرابٌ ما بعد الصدمة.

- لا أعلم ما حدث، حتى أنه كان معه شدادٌ فيه أغراضٌ خاصة.

- حسب تقرير الحادث، صدمتَ جملًا ومن حسن حظك كان حوارًا وسيارتك رفيعة سمحت لك بالنجاة، وبُعدُ الضرر عن أجزاءك الحساسة. على أية حال ما ذكرت آنفًا يزيد من تيقني في أفضلية بقائك حتى غدًا لتأكد من أعراض فقدان الذاكرة الجزئي.

- ماذا عن أغراضي؟

- تقصد شنطة الملابس؟ أنها في الخزانة على اليمين، لا شيء آخر. استريح قليلاً.

كانت نجاته أعلاه من عجائب الدنيا ولكن مقدرة لصفر حجم الجمل وارتفاع قامة المركبة الحمراء المدججة بالحديد الصلب القاسي، وعلى هذا استطاع النجاة من بعد الله. إن ما يشوشه هو اختفاء الراكب من الحادثة وعدم ذكر التقرير له، وفيه باطن يكرر:

هل حقاً هرب من الموقع؟ لا أتذكر شيئاً! ربما كانت شخصيته تخيلًا أصابني من آثار الحادثة، هل كنت لوحدي، وأين هي شدادُ

الساحر؟ أفضل حل هو الذهاب لموقع الحادث للتأكد ، ربما أتذكر شيئاً ، أو علي النظر للسيارة أولاً ، ربما أنشط ذاكرتي .

في إبان وجود إمكانية للخروج الليلة؛ سأـل الممرضة المشرفة على القسم الحالي تماماً:

- عفواً، ماذا عن الإمكانية الخروج الليلة؟
- يجب على استشارة الطبيب، وتوقيع أوراق الخروج منه، دعني.

- هل أقدر على الذهاب بدون كافة هذه الإجراءات المطلوبة؟
- أنك تتفهم القانون وإجراءاته بحكم وظيفتك، حيث تقدسه وتطبـقه حق تطبيقـه، ما الداعي لي أن أفك القيود عنك دون تصريح؟
- وما هو القانون الذي يمنع خروج المريض بمسؤوليته؟
- قانون المرضى الجديد، فحسب تحليلـ الطبيب، فأنت تعاني من اضطرابـ ما بعد الصدمة ونسـيان عابرـ للذاكرة، على هذا الأصل نرجـو بقاءك حتى نطمئـن على صحتك.

إنـ الحلـ في معضـلة نـسيـان الـذـكريـاتـ هوـ عـيشـهاـ منـ جـديـدـ وـكـانـهاـ لمـ تـحدـثـ مـسـبـقاـ؛ لـربـماـ تـرـجـعـ الـذـكريـاتـ الـمـيـةـ.ـ كـانـتـ هـذـهـ مـنـ أـفـكارـ الـتـيـ فـكـرـ فـيـهاـ فـقـدـرـ،ـ ثـمـ فـكـرـ حـتـىـ أـعـقـلـ،ـ الـلـيـلـةـ يـمـسـيـ فـيـ المـشـفـىـ فـقـطـ مـنـ أـجـلـ نـصـيـحةـ الطـبـيـبـ وـتـجـنـبـاـ لـخـالـفـةـ الـقـانـونـ الـذـيـ اـسـتـجـدـ حـيـثـ يـمـنـعـ الـمـرـيـضـ مـنـ الـخـرـوـجـ بـدـونـ إـذـنـ الـأـطـبـاءـ،ـ الـلـيـلـةـ رـقـودـ وـالـصـبـاحـ رـبـاحـ.

بعد رـدـحـ منـ الزـمـنـ،ـ صـحاـ الصـبـحـ وـشـعـرـ بـأـنـهـ قـادـرـ عـلـىـ المـشـيـ وـالـحـرـكـةـ،ـ تـوـجـهـ إـلـىـ الـخـزانـةـ لـعـلـ الطـبـيـبـ سـهـاـ عـنـ ذـكـرـ الشـدـادـ،ـ

ولكنه كان صادقاً فيما نطق، الأهم أنه استبدل ليس المرضى
الذى يزيد من ثقل المرض على المريض.

دخل الطبيب ونظر إلى حالة مريضه، فطلب منه أن يستلقي على
السرير وستجلب الممرضة له كرسيًّا متحركاً، رفض جازماً
سلامته، ولكن إصرار الطبيب على أنها إجراءاتٌ متبعةً بموجب
القانون؛ أجبره على القعود في الكرسي المتحرك.

كان سبب سحل الدكتور له هو إجراء فحص لنسـيان
الذاكرة، دخل المكتب وتحدى معه:

- أخ جمعان، سنجري لك تحليلاً للدم والبول للتأكد من عدم وجود عقاقير قد استخدمتها و...

- لم أتجرع أي شيء يا دكتور مصطفى.

- أعلم ذلك، لكن دعني أنهي كلامي. بالنسبة لتحليل الدم والبول فهما إجراءان مطلوبان في كل المستشفيات، أما الجديد في عالم الطب هو أشعة الرنين المغناطيسي، التي سنفحص بها منطقة الدماغ، مع العلم أنها تقنية حديثة النشأة في هذه السنة.

- أجريتم لي أشعةً مسبقاً، ما الداعي لهذه الأشعة؟ وأنا لا أعاني من مشكلة عقلية، فما زلت أتذكر ذكريات الأمس وما قبلها حتى الطفولة!

- إن أشعة الرنين المغناطيسي مغايرة تماماً عن الأشعة السينية، الأولى مهمتها إظهار نقاط التخثر والبقع السوداء في المناطق الحساسة التي منها نستطيع تحديد أماكن التجلط أو صعوبة وصول حركة الدماء في العضو، أما الثانية مهمتها إظهار العظام ومناطق الكسور والشعارات. إذا لم تكن لديك أسئلة إضافية، عليك البدء الآن بالذهاب مع الممرضة لتأخذ منك عينة الدم ثم تليها بالبول فأشعة الرنين المغناطيسي.

- على خير، لكن ما زلت أجزم أن كل وقائي كانت حقيقةً
وليس وهمًا.

- هناك مقوله عالمية يقال فيها أن المريض لا يعي نفسه حتى لو
أشرت إليه.

إن تحليلات الدم والبول تأخذ ثلاثة أيام جلالٍ، وعلى هذا
صرفوا موعداً له بعد ثلاثة أيام، أما تحليل أشعة الرنين المغناطيسي
لا تربو عن ساعة من الزمن، لذا انتظر في الردهة حتى يحصل على
استشارة الطبيب حول أشعته، وبعد ساعة نادت عليه الممرضة،
وهذه المرة كان معه مراجعون ينتظرون دورهم، وكأنهم يسترقون
السمع منه:

- جمعان السبيعي، جمعان...
- نعم هنا.

دخل على الطبيب المشرف على حالته وكان معه طبيب آخر -
يحوم بالنظر بين الأشعة وصاحبها، لاحقاً سيعرّف نفسه بأنه
مختص في علم النفس - وسلم عليهما ثم رد الطبيب المشرف:
- عليكم السلام، اجلس وانتبه معي في التفاصيل، أظهرت
أشعة الرنين المغناطيسي نقطةً سوداءً في منطقة الحصين في الدماغ،
وهي المنطقة المسئولة عن الذاكرة وعملها.
- وماذا تعني النقطة السوداء؟

- إن هذا دليلٌ على وجود صعوبةٍ في حركة الدماء حول منطقة الذاكرة مما يُعدُّ برهانًا على فقدان الذاكرة العابر. سنصرف لك مسill دماءٍ وحبوبًا فيها مصادر السيروتونين الذي سيساعدك على استعادة نشاط الذاكرة. ونرجو أن تستأنس لنا بأن يقوم الأخصائي النفسي بإجراء فحصٍ للذاكرة وفقَ قواعد علم النفس. ولكن قبلها علىٰ تحذيرك، إذا حدث وتذكرت ذكريات معينة، فأعلم أنها أوهام تصنعها النقاط السوداء وليس وقائع تتمسّك بها.

أجرى المختص فحصاً من خلال منهج وكسـلر الذي يختبر الشخص أحد عشر اختباراً منها تسلسل الأرقام والمدى المكاني والتوجيه والصور العائلية، وفشل فيها كلها.

كانت هذه الطامة الكبيرة بالنسبة له، هل كان كل ما عاشه نقاط سوداء؟ أم حقيقةً فعليةً حدثت؟

إن الحل الوحيد هو الترجل عن الوضع الذي يُرثى له، بالقيام بتحقيق خاصٍ. قام من الكرسي المتهالك ولكنهم أجبروه على القعود بقوة القانون الجديد، وعندما ذهب لغرفته حتى يجلب أغراضه ويقرر الانصراف، وجد رجال أمنٍ يصفون أنفسهم بأمن المرضى يأمرون بـ بعدم الخروج من غرفته إلا بإذن الطبيب.



الفصل الرابع

مرت ثلاثة أيام على حجره في غرفته، ولم تستمر يوماً آخر حتى دخلت عليه الممرضة وأعين الحرس تحرسها، أخبرته بأنها تملك طلباً مسبياً من الطبيب لإحضاره حتى يفحصه، قاموا بإحضاره حتى يقعد على الكرسي رغم سلامته وجروه إلى الطبيب حتى أدخلوه عليه، سقط سهواً عنهم أن من يحرسونه سبق وأن خاض دورات تدريبية جهزته لمواقف كهاته.

ادعى أن بطنه يؤلمه حتى يفحصه الطبيب، ولما وضعه على السرير خنقه بيديه واليد الأخرى على فاهه، حتى تأكد من فقدانه للوعي، وبعدها استهل في خطته حيث كان يفكر في كل الاحتمالات على مدار الثلاث الأيام الماضية وكان هذا الاحتمال هو الأقرب للتطبيق.

بدل ملابسه بملابس الطبيب ثم وضع الطبيب في السرير وغطاه، صرخ بحلاة الطبيب مدعياً حاجته للمساعدة من أمن المرضى في شأن المريض، وعندما دخلوا، اندس خلف الباب حتى تأكد أن جميعهم وقعوا في الكمين، عندها خرج من الغرفة وأقفل عليهم داخل العيادة.

سار في المستشفى ولم يكن أحد يشك في هويته حتى انصرف بدوت تريث إلى الخارج، ولما علم بطلوعه سالماً، وقتها أمن العقاب من قانون المرضى.

لم يطل البقاء أمام واجهته حتى سعت إليه المركبات الكبدودة خارج باب الرئيسي حيث تقل فيها الشخص إلى مبتغاه، سقطت عينه على رجل كبدود ودب إليه:

- السلام عليكم، توصلي إلى بلدة الخرمة؟

- وعليكم السلام، نعم المنطقة لا تبعد إلا ساعة من هنا.

لم يسأله عن سعر الأجرة لعدم اكتراشه بالمثل وإنما غايته الوصول لأهله، وكان يفكر كيف سيفسر الرضوض وليس الطبيب لأهله. وفي المقابل لم ينهل عليه السائق بالأسئلة عن سبب الكدمات على وجهه. وفي الطريق لم يكن يفكر سوى بالحادثة السابقة، أكانت حادثة حقيقية أم مجردة من الصواب؟

وفي ثلث الأول من ساعة الطريق، التفت عليه وسأله:

- أين هو أقرب مركز مرور لكم؟

- مركز الحفيرة لكننا قفزنا عنه.

- لا مشكلة، ارجع له وسأزيدك.

لن يرفض الزيادة هذه على الإطلاق واثقاً أنها ستعطى له من الطبيب الذي ربما يستلم أجرة عالية. كان الغرض من الرجوع

للمركز هو البحث عن سيارته التي لم يُعد يُعيرُ لها اهتماماً بذاتها وإنما حتى يعرف ما جرى له وقت وقوع الواقعة، أخذنا طريق ذهابهما إياياً لعلهما يجدان المركبة، وفي الثالث الثاني من الساعة الأولى، وعلى الطريق وصلا إلى المركز، وطلب السائق:

- انتظري هنا، فلن أطيل البقاء، مجرد أوراقٍ سأوّقعها على سيارة أجزم أنها ذهب تشليحاً بسبب حادث ليس بضحل.

- هذا إذاً سبب جراحك، سأنتظرك حتى ترجع ولو بعد حين. نزل وهو يعرج عرجاً خفيفاً، وكان يجب عليه انتشال أغراضه عندما كان في المشفى لو أنّ أمن المرضى لم يكن لهم وجود، من هاته الأغراض كانت الأوراق الرسمية من التابعية الشخصية مهمةً حتى يتعرفوا على صاحب السيارة المسجلة باسمه.

دخل قسم المرور وأوقفه المجندي وطلب:

- تابعيتك.

- لا أملكها الآن، فأنا وكيل رقيب في سلك الحرس الملكي ولدي سيارة في حوزتكم؛ لعلمي أن تقارير الحوادث تصدرها أجهزة المرور.

- نعم، وصلتنا قبل أربع أيام مركبة جيب أمريكي طراز السبعينات، وإنما هناك مشكلتين ما زلنا نسعى لحلها وعلى هذا يجب عليك الانتظار لو رغبت فيأخذ السيارة لستودع الخردة؛ لأنها ذهبت تالفاً.

- لدى علم مسبق أنه تلفت من الحادث، ولكن ما هي المشكلة الأخرى؟
- من الجدير أن تدعنا ننهيها بأنفسنا، والسيارة في ساحة الحجز، راجعنا غداً، حتى ننهي جميع التعليمات.
- أستغرب من هذه المهمات المحيرة، فكيف تكون السيارة في الساحة ولكن غير قابلة للاطلاع عليها، ولما رفض الرجل ضمـنـا على طلب التفراج عليها!

الحل الجدير هو رؤيتها بـ سـرـيـةـ، وـعـلـىـ هـذـاـ أـخـذـ وـرـقـةـ المـوـعـدـ
المـقـرـرـةـ غـدـاـ وـخـرـجـ خـارـجـ قـسـمـ المـرـورـ إـذـاـ بـالـكـدـيدـ عـنـدـ الـبـابـ
يـنـتـظـرـهـ، فـأـشـارـ لـهـ إـشـارـةـ الـانتـظـارـ بـكـفـهـ الـأـيـمـنـ حـتـىـ يـخـبـرـهـ أـلـاـ
يـنـصـرـفـ، وـدارـ دـوـرـةـ اـسـتـكـشـافـيـةـ كـامـلـةـ حـوـلـ الـمـبـنـىـ حـتـىـ لـمـحـ قـسـمـ
الـحـجـزـ فيـ زـاوـيـةـ الـمـبـنـىـ مـنـ خـلـفـ، وـكـانـتـ هـنـاكـ جـمـوـعـ مـنـ السـيـارـاتـ،
إـذـاـ بـهـ يـلـمـحـ رـجـالـاـ لـيـسـواـ بـعـسـاـكـرـ بـلـ مـدـنـيـنـ مـعـهـمـ حـبـلـ تـشـدـ بـهـ
الـجـيـالـ مـنـ قـوـتـهـ، يـجـرـونـ أـمـرـاـ تـحـجـيـهـ السـيـارـاتـ عـنـ نـاظـرـيـهـ!

قرر القفز لأن الارتفاع ليس حاداً بواسطة مرفقيه رغم ضعف جسده بسبب الشعراة في معصمي اليدين التي قوضت حركته، والأدوية التي سكنت جسده، تسلل خلسة فوق الجدار بدون علم أحدٍ، وخطا خطاه بين السيارات المحجوزة حتى وصل للنقطة العمياء التي أعمته عن رؤية المسحوب مع الحبل، فكانت المفاجئة أنها سيارتة!

إن ما **خفِيَ ذكره** هو أن **الحُوار** عند اصطدامه دخل على الراكب الأيمن بالكامل وعلق في المرتبة حتى قضى نحبه، وكان صغر **الحُوار** هو الذي جعله يحوز حيز مرتبة الراكب الثاني فقط، ولما كانت جموع الرجال تحاول سحبه من مكانه، يأس بعضهم حتى أنسِرَف.

أول ما يتَبادر بذهن أي شخص وأولهم قائد المركبة أن رفيقه **توفاه الله**، لكن لماذا لم يذكره التقرير عن الحادث، هل غفلوا عنه، أم **عمدوا في نسيانه؟**

لم يطل النظر حتى سمع بعض الرجال يحادثون بعضهم، حيث سمح له قرب المسافة باستراقه السمع عليهم، كان الرجل الأول الذي يحمل كتيباً صغيراً يدون ويسأَل من معه:

- حسب سجلاتنا إنها الحادثة العشرون التي تحصل على هذا الطريق، وعلى نفس النمط.

أما الآخر يتساءل:

- ألم تجدوا لقرن الشيطان أثراً؟

- لا، فقط...

كلام غير مسموع.

- أَدَّا، تعرفون ما عليكم فعله، عملية التحديث وإخفاء للدلائل. أنتظر تعاقب الليل والنهار حتى ذهبت الرجال، فنسِي أن هناك سائقاً ينتظره حتى تخلى في المقابل عنه في نهاية المطاف. حل الليل

عندما دخل الشفق ومرت عليه ساعتان، إذا بالرجال قدروا أخيراً على إزالة كافة الدلائل عن الخردة المتهالكة والمحملة بالحوار المسكين ثم ألحقوا عملية التحديد باستئصال بقايا الدابة الصغيرة عنه.

عندما بلغ السيل الزي وتأكد من خلو المكان من الرجال عن سيارته التي كان لم يشفق عليها عندما أخبروه في المستشفى بأنها ذهبت تالفة حتى رأها بنفسه وتذكر اليوم الذي اشتراها قبل سبع سنين من اليوم؛ بفضل ترقيته التي أعلنت أجرته وسمحت له بتحمل تكاليفها التي كانت من نوع دفع رباعي ذات الحوض والغمارة الأحادية، وكان من أوائل المشترين عندما استورتها الأسواق المحلية من الشركة الأم شركة جيب الأمريكية التابعة لجنرال موتورز.

ووجد آثار الحوار الواهن على المرتبة اليمنى، وتفحص السيارة لعله يتذكر شيئاً طمس عليه، زاد الليل من طمس الذاكرة التي يعاني منها، فلم يستطع إيجاد تلميحات، فقرر البحث عن فانوس ربما يجده على مدخل الباب أو في الشتات من حوله، تمشى قليلاً حتى وجد ضالته معلقة على مدخل السيارات، فنهبها ورجع إلى مكانه المطموس وهو يرتجح يمنةً ويسرةً متأثراً من طاقة مجهولة وربما نتاج الأدوية.

فانوسٌ وزنه أقل من نصف كيلوغرام ومع ذلك تهياً له أنه يحمل
بعيراً؛ بسبب إصابةٍ عرجاءٍ في المفصمين تبدل حاله من رجلٍ قويٍّ
صلبٍ إلى واهن لا يصبر على ثقلٍ أصغرٍ للأمور، واقعة تظهر ضعف
الأنسان مهما كان جبروته سيسقط كسقوط الملك العظيم نمرود
عندما مات من بعوضة حششت في رأسه ٤٠٠ سنة.

كان الفانوس مساعداً في ظلمة الليل الحالكة، وعندما وصل
للسيارة كانت فقط الدماء هي التي تغطي السيارة، وبين ناقل
الحركة وجد القلادة المرجانية، ولكن في أعقاب ذلك أشتم رائحة
بقرب السيارة في الجهة الأخرى، وكانت ريح تعفن جيفة في بداياتها
الأولى، لحق الرائحة ثم أضاء من حوله وهو يسير وإذا به يقرب
الفانوس إلى خيشة تغطي جسداً ما، ولما رفع القماش وجد جثة
الحوار التي بدأت تفرز رائحةً عفنة وفيها أمر مريبٌ داخل أحشائها!
عظامُ الحُوار في منطقة السِنام فُقدَتْ، وعظام الفقار أُخذَتْ،
لم تكن من فعل الحادث على الأطلاق، حتى صفير البشر غير
المميز يقدر على استيعاب أن الصناعة هاته هي صناعةٌ فاعلٌ أراد
التمثيل بالجثة أو ربما الأسوأ!

في وهلة، ظهرت ومضات تشير إلى الذكريات الميتة، لقد
تذكر أخيراً، وعادت الذكريات المرعبة للحياة، فأنطفأ الفانوس
وحدث خسوف للقمر فجأياً، وبعدها رأى شهاباً وكأنما أزاح
الفاعل المفتعل لهذا الخسوف القمري!

ولكن فات الأوان حتى أغمى عليه سبب ارتفاع ضغط الدم الناتج عن آثار خسوف القمر الخطيرة على البشر. بعد صحوته من غفوته الفجائية وإذا بجموع من العساكر فوق رأسه متألبين حوله في شكل دائرة حتى أفق، حملوه لغرفة التحقيق وهو في أسوأ أحواله، وسأله المحقق:

- السلام عليكم، أعلمت بأنك مكبوشٌ عليك في أحد زوايا حجز السيارات، وهي ليست جريمة عظيمة وإنما جريمة عندما يكون لها مغزى، ما اسمك؟

- اسمي جمعان... السبيعي، ولكن يا حضرة المحقق اتهم عسكري يعمل مثلكم في القطاع العسكري بالحرس الملكي أمر أعوج، لا نية لي بالضرر على الممتلكات العامة للدولة، والخاصة للشعب، كل ما في الأمر أنني رغبت بالاطلاع على سيارتي.

- أي مركبة تتحدث عنها؟

- مركبتي من نوع جيب، اصطدمت بها حواراً وتضررت السيارة وأنا فيها، والنذوب على وجهي ومشيتي العرجاء والشاشة واللصقات الطبية خير مثال.

استغرب المحقق، ودخل فيه حيرة من كلام هذا الرجل، حتى قرر الخروج ومحادثة الأفراد العساكر حول الأوراق ومداولتها:

- سلموني كافة الوثائق والتقارير حول هذا الرجل.

- سيدى، لا نملك عن هذا الرجل شيئاً سوى أنه يدعى أن له سيارة عندنا ولا نملكها.

رجع المحقق إلى غرفة التحقيق للتعليق حول سبب وجود هذا الرجل المصاب في ساحة الحجز، ورافضاً ادعاءاته حول أحقيته مركبة مسجلة باسمه:

- لم نجد لك سيارة باسمك، ولا أي تقرير عن الحادث كما تدعى.

كان سيزيل لسانه في طرح السبب الأصيل في حالة إغمائه وهي خسوف القمر، ومن كان ليصدق أمراً كهذا، وعلى كل حال استمر التحقيق من أسئلة عن ذاته إلى عمله وصولاً إلى حالته الصحية، فلقد أرسلوا مرسولاً إلى مستشفى الحفيزة حتى يحضر تقرير المريض الطبي.

عندما وصل التقرير وجدوا فيه إقرار مشكلاًة خلل في عمل الدماغ، ولكن لم يجدوا الطبيبين الذين عملاً على حالته، مع هامش بسيط يطالب بدفع غرامة التهرب من المشفى وأنها عقوبة حسب قانون المرضى الجديد.

لم يعاقب على التعدي على الممتلكات العامة؛ لشفاعتهم على حالته صحية والعقلية، واتخذوا له سبعين عذرًا، لم تكن حالته الصحية متوازنة، والأهم هو تقرير مستشفى الحفيزة الذي أوصى عدم حجزه وحاجته للدواء المستمر والإشراف الطبي بسبب بقعةٍ

سوداء في منقطة الحصين، ولكنهم غرّموه في تدّيه على قانون المرضى، سجن شهرٍ وغرامة مالية معزّزة.

الشهر الذي قضاه في زنزانة الحبس، حاول تصور سوابقه وتدّكر ما شهد، وكانت الدوبيسي تجول في أعماق هواجسها، وعندها علم أن هناك خبايا تحتاج لكاشف الستار حتى يفضحها في تلك المنطقة، ثلاثون يوماً من العزيمة على فضح الحبيكة.

حل موعد الخروج، وعند طلوعه سلموه أغراضه التي لم تكن سوى قلادة قديمة لا تسوى قرشاً، ولما ولى ظهره عليهم جزم أن هناك مؤامرة تجري في هذا القسم، وأصحابها متآمرون ومتواطئون ضده، ولكن أصر على حقيقة الواقع التي عاشها.

بطبيعة الحال لن يجد مركبة تحمله من على ناصية الطريق أمام مركز المرور، ولا كديداً عاقلاً بذاته يقف عند مركز المرور الذي لا يزوره أحداً إلا مرةً في السنة، واضطر أحد مجندى القسم أن يأخذه بمركبة الدفع الرباعية المرورية إلى أقرب تجمع مركبات وهم في أسواق الحفيرة، لم يكن عملاً خيرياً من مركز المرور، وإنما رغبةً منهم في سحله عن ممتلكات الدولة المصنونة.

لما نهض من مقعده للخروج من مركبة المرور، شد العريف يده وقال، إنه أقرب لك من حبل الوريد، بعدها أمره بالنزول والتشبث بالسلامة.

إن ما حدث من أحداث في الشهر وما يسبقه من أيام كان مربياً حتى لجбир القلب، ولا غضاضة في الاعتراف منه، أن ما حدث له طيلة تلك الأيام العجاف كان من أشد ما أرعبه في كل مرحلة عاشها من مراحل حياته.

لقد رماه المجند في أسواق الحفيرة، وأصبح لقيطاً يبحث عن متبين في كومة متقدسة من الناس كلُّ فوق بعضه الآخر. إنَّ ما أستجد في ذاكرته هو ذكرياتُ الساحر الذي سبق وأن ركب معه حيث كان يحمل شداداً معه ولكنه لا يتذكر ما كان يخفيه سوى الخريطة.

تجول في السوق وإذا به يلمح لوحة حانوتٍ تحت مسمى الدويحي، عندها حلَّت عليه لعنة الليلة التي هرب فيها من المحطة الأولى وقراءته عن خريطة تحمل اسم هاته المنطقة.

دخل الحانوت للسؤال حول المسمى وسبب التسمية راغباً فيأخذ معلومات عن هذه الوجهة التي حددتها الخريطة، وعندما كلم البائع عن سبب تسميتها لمحله باسم هكذا؛ أجابه على أن هذه المنطقة تحمل بحور الذهب واكتفى بالإجابة هذه.

دار في ذلك السوق الواسع، باحثاً عنمن تظهر عليه علامات الكبر والتواضع حتى يسأله، حتى لمح رجل كهلاً قاعداً على بساط يبيع المسابح، عازماً على الشراء منه قبل السؤال حتى يشجعه على الرد:

- السلام عليكم يا عم، علىكم هي أسعار المسابح لديك؟
 - الواحدة تساوي ربع ريالٍ واحدٍ.
 - سأشتريها ولكن قبل ذلك سأفاتحك بتساؤل عندي يجول في خلدي.
 - تفضل يا بنى.
 - هل سبق ولدك أن سمعت عن منطقة الـدوـيـحـيـ؟
 - منطقة ملعونة، ومن يسأل عنها ملعون، أنصرف عنـيـ يا أسافـلـةـ السـافـلـينـ.
- رأى الناسَ كلـهـاـ تـلـمـحـهـ بـنـظـرـاتـ قـاسـيـةـ وـكـأـنـمـاـ هـوـ لـيـسـ السـائـلـ.

الوحـيـدـ.

يا عـمـيـ أـنـاـ مـجـرـدـ سـائـلـ فـضـولـيـ.

عـانـدـ عـنـ الرـدـ وـصـمـتـ الرـجـلـ المـسـنـ بـنـظـرـاتـ حـادـةـ. إنـ رـدـهـ غـيرـ

مـتـوقـعـ، وـلـقـدـ قـالـهـ بـنـبـرـةـ نـابـعـةـ مـنـ فـؤـادـهـ، إنـ رـدـهـ فـعـلـهـ اـسـتـجـوـبـتـ

الـاـنـصـرـافـ عـنـهـ، لمـ يـعـ سـبـبـ اـسـتـجـابـتـهـ الـمـبـالـعـ فـيـهـاـ، وـلـكـنـهـ عـلـمـ أـنـ

هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ لـهـ سـمـعـةـ سـيـئـةـ تـذـاعـ فـيـ الـأـرـجـاءـ.

لـقـدـ خـطـاـ خـطـوـاتـ مـنـ جـانـبـ الـمـسـنـ وـأـعـيـنـ النـاسـ حـولـهـ، وـكـأـنـ

الـسـوقـ يـحـويـ آـلـاتـ وـلـيـسـ بـشـرـاـ بـرـمـجـتـ عـلـىـ الـاـسـتـجـابـةـ بـهـذـهـ السـلـوـكـ،

أـسـتـمـرـ هـذـاـ الـوـضـعـ حـتـىـ خـرـجـ مـنـ الـسـوقـ كـلـهـ، وـقـرـرـ الـمـشـيـ بـاـنـعـرـاجـ

بـسـيـطـ بـسـبـبـ الـحـادـثـ، وـإـذـاـ بـكـدـيـدـ يـلـحـقـهـ وـيـتـوـقـفـ أـمـامـهـ عـلـىـ

ناصية الطريق حتى زحف إليه راجياً منه أن يركب في مركبته، لم

يستجب له حتى وعده بأن يطلعه على أسرار المنقطة الساحرة:

- مرحباً، لقد سببت شوشة في السوق؛ ولم تزل حتى خرجت عن السوق، يا رجل ما كان عليك ذكر المنقطة الملعونة.

- وما علمي في هذه المنطقة وكراهية الناس لها، لقد ذكرت لي من مسافرالتقىته، قال إنه سيزورها ولا أكثر من ذلك.

- أظنه لم يكن منا من التقىه، وفي أقصى الأحوال لو أتمننا له الأعذار سيكون مجنوناً أو معتوهاً.

- آ... لا أعلم ماذا تقصد بغير البشر، تبادر لي أنه شخص طبيعي، لا أعلم يا رجل، ولكن ما هي قصة هذه المنطقة وسمعتها المميزة؟

- لا أعلم الكثير عنها، إن جدي قد التقى جنًا من الفصيلة المسالمة التي اتبعت الإسلام وخشيت القرآن عندما سمعته في سوق عكاظ، أظنك ستتعجب وربما لن تصدق فكرة تشابه البشر مع قرنائهم المغايرين لهم في كل الصفات، الجن.

- لا لا، سأصدق كل ما تقوله، وكل هذا في صميم فهمي لهذا المكان، لقد عشتُ معظم حياتي في السفوح القرية منها ولم أعلم أمراً كهذا من قبل، عن إرثٍ غامض مثل إقليم كهذا، على ذلك فأنا منفتح لتصديق أو على الأقل تقبل بعض الأوهام في سبيل الفهم.

- مثلما قلت لك، جدي يملك من غزارة فهم أخبار العرب ما تجعله عقيدةً على قومه، لقد قابله في شبابه جنٌّ كان يسأله عن هذه المنطقة، لم يكن سلوكه مطابقاً لأهل الصحراء رغم تلبسه على لبس رجال الصحاري، وكان هذا أمراً يثير الريبة، وأبى جدي أن يخبره أو يطعنه، فاضطر هذا الجني المسلم أن يعترف باختلاف جنسه عن الإنس في سبيل أخذ معلومات عن المنطقة؛ ثم أخبره جدي عن هذا المكان مقابل صراحته وبعد تأكده من إسلاميته.

- ما الرابط إذًا بين كراهية الناس لمنطقة الغربية، وبين قصة جدك؟

- يا رجل إنها منطقة تفضلها مخلوقات باطن الأرض، التي حقيقةً لا أعلم سبب تفضيلهم لها.

- أعدركي على وقاحتى، هل ما زال جدك على قيد الحياة؟

- نعم، ولكنه هرم الآن ولم يتحدث منذ ثلاثين عاماً، ولا أظنه سيحدثك على الإطلاق.

- سأقطع الشك باليقين، يجب أن أحاول في سبيل الحقيقة.

- وما نصيبيك من معرفة المزيد، فهذه منطقة الجن الخالدة، ومكان مكروه تخلو منه كل علامات الحياة سوى الحيات الجاحرة في جحورها، أبعد عن الشر وعش.

- إنك لا تعلم ما مررت به أنا، لقد فقدت الإحساس بالزمن نتيجةً ما حدث لي من أهواي، كان من المقرر أن أزور عائلتي قبل...

لا أتذكر ما تاريخ اليوم ولا ساعتها الحالية، تباطأتُ في الوصول إلى مرقدي عند أهلي. أنا بحاجة لفهم القصة حتى أفضحها عن بكرة أبيها، أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

- حسناً، إن جدي مثلما قلت لك هو مثل الطريح في الفراش؛ لا يتحدث ولا ينادي بأمر، ولكن جرب حظك معه.

لا يستطيع المرء نكران ما مرّ به من مصائبٍ حيث بدأت مع مفسر الأحلام الملقب بالمامون الذي لم يلتقي به حتى صادف الثالثون العجاف، والذي قدر له الشاعر الواهن برزق طال أجله لا يحدث إلا للأنبياء، حتى وصل إلى الساحر الناجر الذي أوصله إلى أسرار البشرية الجماء من منطقة الدويحي، إلى الإيمان بأساطير الأولين من جن وعفاريت والتسليم بوجودهم حتى رؤيتهم كما حدث مع آكل العظام الذي أكل عظام الحوار المسكين وتركه جثة عجفاء بلا عظام سوى لحم قد أكله الدود الآن.

وعده بإيصاله إلى جده الذي لا يبعد كثيراً عن مسقط رأسه، كانت الطريق المؤدية إلى عقر دار أهله حيث يبيت الجد معهم وعراً في سهول تغطيها جبالاً، وكان لطقس الصيف أن جرد الجبال من خضرتها والسهول من أعشابها، دار تجعل الناظر يتadar إلى ذهنه أن الحياة بسيطة لدى أصحابها.

أبيا عن الحديث لمدة ساعة حتى وصلا إلى منطقة مسورة تسويراً بسيطاً، داخلها بيت مصنوع من الشَّعْرِ مقسم إلى قسمين للنساء

والرجال، وبيت معمد بالخشب ومسقف بأوراق، حيث النساء يجهزن الفطور في البيت الخشبي والرجال في بيت الشعر، دخلا إلى المنطقة المسورة ولم يكن لأصحاب الدار نبرة بسبب سرورهم إلى أعمالهم، الصغير منهم يرعى الأغنام، والكبير يعمل لإطعام البيت خشية عليهم من الجوع.

على هذا الأصل، لم يستقبلهما أحد سوى صمود كبير السن، ونبأ النساء في طبخيهن. كان الجد لا يستقبل الرجال عندما يأتون إليه فلا تشريب على الإنسان الذي رفع القلم عنه، واصطكى صفحته في الكتاب، وسمح له بالعصيان، ما دام لا يفقه أفعاله، كان هذا ما حسبوه في البداية.

ناداه حفيده:

- يا جدي، هناك من يحتاج معونتك، رجل تقطعت به سبل الحياة وعاني حتى يصل لك، إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له، أنت مخلبُه من بعد الله.

- دعني أجرب حظي معه، ولكن ما اسم جدك؟
- هايف.

- يا عم هايف، قدمتُ إليك من صوب الحفيرة سائلاً عنك، وباحتاً عن أجوبة لا مجيب عنها غيرك، هل سبق وأن أطّلعتَ على معلومات عن منطقة الدويحي جنوب الخرمة؟
لم يستجبُ الجد، وكأنه روح بلا جسد، جمادٌ حيٌّ إن صح التعبير، ولا ينظر إلى المتكلم حتى يعطيه انطباع عن نفسه في أنه لا يسمع ولا يرى، فربما قد يكون ضريراً وأصم في آن واحدٍ، ولكن حدثت المعجزة عندما ارهصه بسؤال عن:

- يا عم، أنت الوحيد الذي يعلم الخبايا، لقد مرت عليّ ظروف في الأيام الماضية، حتى أني غدوت ناسيّاً لعدد الأيام التي مضت هل مرت سنة أم شهر، كانت بداية النهاية حلماً مُكذبًا افترته زوراً على نفسي وادعية حدوثه، فلا أعلم أن كان هذا عقاباً لي من الله. واجهت رجلين غيرا مساري وربما للأبد، منهما الساحر الذي يحمل دفتر أبليس وقبح السجية الذي وجدته يأكل عظام البهيمة

وأنا في أصعب أحوالى، وكلاهما ياميان جعلاني أصدق مُسلمة
الجن والسحر و...

وفي صفة ريح أهتز كبير السن من مقعده ورد وكان أحداً

صفعه:

- هل قلت يامياً!

- نعم، ولكن ليس هذا هو مقص...

- إن هذا يغير كل شيء، لقد تحققت النبوة، كانت مقدرة
وعلوّمة، فقط الزمن هو من سرعها.

إن آثار الرعب بدأت تتوجس كبير السن الهزيل، فلم يتحدث
كثيراً منذ سنين عویصة، وعندما انطلق رجعت كافة أحاسيسه
وكانما رجع طفلاً خائفاً من ظله يتودد أحد والديه لحمايته،
ولكن ما من مستعطف على كبير سن حتى يحضنه في هذه الحالة.
كل شيء يتمحور حول الياميين، كما تبادل لذهن السائل
والحفيض، فقد علما أن الجد يحمل في جعبته معرفةً غائرةً حول
طبيعة هذين الرجلين، على هذا عاود الكرة من جديد وركل
عليهما:

- لا أعلم حقيقة هذين الرجلين، رغم أنهما ليسا طبيعيين في
سلوكهما، واحد تبادرت عليه علامات التدين حتى أنه أَمَّ بنا صلاة
الفجر إماماً صحيحة، ولكنه سها عندما قرأ لنا سورة الجن، ففي
الآيات الأولى من سورة الجن عندما استمعت الجن لترتيل الرسول

القرآن في سوق عكاظ تعجبوا منه، حتى قالوا إنّا سمعنا قرآنًا عجباً، أما الغريب أنه قال...

- قال إنّا حقاً سمعنا العجب، ردّ متوقع.

- نعم هذا ما قاله!

- أما فيما يخص الرجال والمنقطة المحرمة، هناك ملحمة عظمى تدور حول هذه المنقطة وترتبط مع يام الذي يرجعون إلى همدان، وليس القصة عن قبيلة برمتها، وإنما عائلة صغيرة منها نشأت قبل قرون مضت في الجزيرة العربية، هذه العائلة يؤرخ لها أجدادنا وأتذكر القصة بكامل نواصيها، وعلى هذا سأرويها لك، وأجزم لك أنك ستفقه الحكاية عن بكرة أبيها، فاصير معي تجزأ.



الفصل الخامس

حُكِيَتْ قصَّةَ عن رَجُلْ أَعْرَابِيْ مِنْ أَعْرَابِ الْبَدْرَاءِ كَانَ يَعِيشُ
هُوَ أَمَّهُ فِي خِيمَةَ وَرَثَهَا عَنْ أَبِيهِ بَعْدَ وَفَاتَهُ وَهُيَّئَتْ سَكَنًا لَهُ وَلَأَمَّهُ فِي
مَنْطَقَةَ سَهْوَلَهَا نَامِيَّةَ وَنَخِيلَهَا عَامِرَةَ، تَمَرَحَ وَتَبَرَحَ فِيْهَا الْأَنْعَامُ مِنْ
الْأَبْقَارِ وَالْأَغْنَامِ وَالْإِبْلِ، وَكَانُوا فِيْ عَزْلَةٍ سَهْلَيَّةٍ مَغْطَأَةٍ بِالْجَبَالِ
حَمَّثُهُمْ مِنْ أَعْيَنِ النَّشَّابِينِ الْجَائِعِينَ.

أَمَا عَنْ تَقْسِيمِ الْأَعْمَالِ فَكَانَتِ الْأُمَّ تَرْعِيَ الْبَقَرَ وَالْإِبْلَ لِقَلْهَةِ
عَدَدِهِمَا وَسَهْوَلَةِ الْقَدْرِ عَلَى رَعِيهِمَا الْبَقَرُ لَا تَخُورُ وَالْإِبْلُ لَا تَرْغُو إِلَّا
عِنْدَ الْجُوعِ وَحِرْكَتِهِمَا قَلِيلَةٌ وَمَقْدُورٌ عَلَيْهِمَا، أَمَا الْابْنُ فَاعْطَى زَمَانَ
رَعِيَ الْأَغْنَامِ الَّتِي تَشْغُلُ بَدْنَهُ بِلَوْسِهِمْ وَلَا حَسِيبَ، حَتَّى كَثْرَةُ رُؤُسِهِمْ
تَسْتَلِزُمُ رَجُلًا قَوِيًّا فِيْ بَدْنِهِ وَنَشِيطًا فِيْ لِيَاقَتِهِ.

فِيْ أَحَدِ الْأَيَّامِ وَفِيْ وَقْتٍ كَانَ مَا قَبْلَ الظَّهِيرَةِ، دَخَلَ الْابْنُ إِلَى
الْخِيمَةَ حِيثُ يَرْتَاحُ بَعْدَ سَوقِ الْأَغْنَامِ فِيْ رَعِيَّهَا، فَوُجِدَ طَعَامَهُ مِنْ
كَسْرَةِ خَبْزَةِ وَإِنَاءِ حَلِيبٍ مَقْعُرٍ جَاهِزًا وَدَعَا لَأَمَّهُ فِيْ طُهْرِ قَلْبِهِ،
وَأَكْمَلَ يَوْمَهُ طَبِيعِيًّا.

أَتَى الْيَوْمُ الَّذِي يَلِي سَابِقَهُ، رَجَعَ بَعْدَ غَيْبَةِ مَعِ الْأَغْنَامِ فِيْ رَعِيَّهَا،
وَدَخَلَ الْخِيمَةَ فَوُجِدَ غَدَاءَهُ كَسَابِقَهُ، فَشَكَرَ أَمَّهُ فِيْ طُهْرِ قَلْبِهِ
وَأَكْمَلَ يَوْمَهُ كَالْمُعْتَادِ، ثُمَّ تَكَرَّرَ هَذَا الْأَمْرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى
أَتَتْ أَمَّهُ تَفَضُّضَ لَهُ تَأْسِفًا عَنْ إِهْمَالِهِ فِيْ تَجْهِيزِ الطَّعَامِ:

- يا بني، أظنك عالماً بالأحوال، فأنا كبيرة سن ولا أقدر على تدارك أعمال كثيرة، فلتتمس لي العذر على سهوي عن حلب البقر وعجن الخبز لك حتى ينسيا ضمرة بطنك، ولكن رغم هذا لقد ساندتني في هذه الأعمال فعجنت لنفسك وحلبت البقر وما تبقى من الحليب رجعت له حتى أطعم به نفسي.

في هذه الحالة لم ينبس الابن حرفاً لأمه، خوفاً عليها من الشك في نفسها، على حسب ما ظنَّ أن والدته هي من كانت تَعِدُ الطعام ولكن أعراض مرض النسيان بدأت تتبلور وربما كبر السن عاملٌ أصيلٌ في ضعف حواسها وذاكرتها لاسيما أن الأيض لدى البشر ينخفض تدريجياً مع تقدم أنسانهم وهو ما فهمه السلف كل الفهم بتسمية مرض النسيان بالحرف ولكن بخرافاتهم الواسعة.

كانت الخرافات في الجاهلية الممتدة على فترة العصور الوسطى وما قبلها عجيبة كل العجب، كان الملاسون والمدوغ يقلدان بالفضة والذهب حتى يشفيا، والمصاب بداء الكلب يطالب بدم شيخة القبيلة ذاته حتى يتداوى منه، بل الأدهى أنهم اذا شكوا في أن مريضهم مَرَضَ من عفريت يحملون بعيراً بالشعير والتمر والحنطة ويرمونه على شعاب الجبال؛ فإذا نقص حمله ظنوا أن الجن قبلت الهدية ويلي ذلك شفاء المريض، أما لو رجع البعير كاملاً فهذا دفع عن حمل البعير منهم مما يُدَلِّلُ على عدم شفاء المريض!

أما فيما يخص طرقوهم في اختبار مرضى الخرف مغايرة عما نستخدمه اليوم، من سبيل الطرح وليس الحصر، أنّ من يغفل عن حشر التعداد على الأغنام ويأتي وهو جالبُ البهمَ بدون العنز، أو قد يرجع لمبيته ويترك حلاله بدون عمدٍ نسيانًا منه، وتصل الطرق إلى الاختبار من أسئلة توجه الشاعر عن شعره حتى ينسى شعره للتأكد على نسيانه، أو سؤاله عن مؤدى هذا الطرق القاطع، وتكثر الطرق ولا تتوقف على هذا أبداً.

تكررت الحادثة مرة أخرى فوجد إناه الحليب المقعر وكسرة الخبز معدّةً، حتى سألهما مرة أخرى وجابت بنفس الإجابة، قرر اليوم الذي يليه أن يراقبها وهي ترعى الأبقار والإبل فوجدها تطعمهم وتسقيهم ولا شيء مثير للانتباه، وعندما رجع حصل طعام الإفطار جاهزاً له وكان الوحي أعد له المأدبة.

علم أن من جهز الإفطار لم تكن هي لأنّه سبق وأن خرج من الخيمة وهي ضامية، ثم رجع لها ووجدها عامرةً بالطعام الغير العتاد، الذي لم يكن من صنيعها لا محالة، وإن كانت صدقةً أو إكرااماً من جيرانهم، إنما أقربُ خيامٍ لهم تبعد من خيمتهم خمس أيام، على هذا المثال كانت الأفعال لا تجد من يفسرها!

حوادث كهذه تتطلب معرفة الفاعل، لأن من صنع هذا الخير كان يصنعه من خير البيت نفسه؛ أي لم يكن صدقةً بل اعتداءً على حرمة البيت بدون إذن صاحبه.

قرر نزع الإذن من أمه حول ارتحاله:

- أَمَاهُ، وَصَلَنِي نَدَاءُ مِنْ خِيَامِ الْعَجَيْجِ، وَأَنَا مُجْبُورٌ عَلَى تَلْبِيَةِ
النَّدَاءِ لَهُمْ.

ظنَتْ الْأُمُّ الْمَسْكِينَةُ أَنَّ الْابْنَ سَيَحَارِبُ فِي اتِّحَادِ خِيَامِ الْعَجَيْجِ،
وَمِنْيَتِهِ أَقْرَبُ مَا تَصُورَتْ وَتَخَيَّلَتْ.

- يَا بْنِي، إِنْ مَتَ مِنْ يَرْعِي الْبَهْمَ وَالْمَاشِيَةَ غَيْرَكَ، وَلِمَا تَرَكَنِي
فِي هَذَا السَّهْوَلِ لَوْحَدِي بِدُونِ حَامٍ؟

- يَا أَمْتَاهُ الرَّبُّ مَعَكَ، إِنْ كَانَ النَّدَاءُ لِلْحَرْبِ فَأَنَا رَافِضٌ لَهُ،
وَعِنْدِي سَبْبٌ أَهْمٌ لِرَفْضِهِ وَهِيَ أَنِّي أَرْعِي مَا شَيْتَا الَّتِي تَسْتَقِي خِيَامُ
الْعَجَيْجِ مِنْنَا الْفَحْولُ لِلتَّزَوِّجِ مَعَ مَا شَيْتُهُمْ، كُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ هُوَ صَبْرُكَ
خَمْسُ لِيَالٍ، وَأَعْدُكَ أَلَا أَبْيَتُ عَنْهُمْ كِيلَاءً أَطْيَلَ.

جهزتْ أَمَهُ الشَّدَادَ دَاخِلَهُ أَقْرَاصُ الْخَبِيرِ كِيلَاءً يَجُوعُ، وَالْأَقْطُ
لِيَدَرَأُ بَهْ جَوْعَهُ إِذَا أَحْسَ بَهُ، وَالْقِرْبَةُ دَاخِلَهَا الْمَاءُ حَتَّى لَا يَعْطَشُ،
وَحَبْلٌ مُّقْرَنٌ حَتَّى يَمْنَعَ بَهَا جَوْعَهُ إِذَا أَشَّتَدَ. خَرَّ عَلَى ظَهَرِ سَفِينَةِ
الصَّحَرَاءِ، نَاوِيًّا أَلَا يَقْفَ سَوْيَ فِي خِيَامِ الْعَجَيْجِ، وَكَانَتْ رَحْلَةً تَمِيلُ
إِلَى الْاسْتِقْصَاءِ عَنْ دُخُولِ الْخِيمَةِ، رَغْمَ أَنَّ الدُّخُولَ قَدْ يَرْجِعُ إِلَى أَمَهِ.
مَخَاطِرَةٌ كَبِيرَةٌ وَلَكِنْ ثَمِينَةُ، فِي رَحْلَةٍ سَتَأْخُذُ أَيَامًا مِنْ ذَهَابٍ
وَإِيَابٍ، وَمَحْفَوْفَةٌ بِالصَّعَابِ وَالْمَفَاجَاتِ. إِذَا قَدْ يَقْطَعُ طَرِيقَهُ قَطَّاعٌ

الطرق، أو تلسعه آفةٌ زُعاف تميته في دقي من الزمن، أو يموت جواعاً أو عطشاً وهذا الأمر الأخير مستبعد؛ تقديرًا عند البشر قديماً على بأسهم في تحمل الجوع والجُل من صغرهم على أكل طعام أقل من احتياجهم حتى تكيفوا.

كحل عينيه وتدهن حتى انطلق في وقت الظهيرة تجنبًا للسفر في الليل؛ لأن الليل تُروى القصص أنّ من أتخذوه مسلكاً في سفرهم حلّت عليهم اللعنة وال المصائب، فهو وقت الغيلان التي تتغول للبشر، وقطاع الطريق الذي لا يفضلون العمل إلا ليلاً كيلاً تُعرف هوياتهم، والحشاشين الذين سُرِّرتْ كتبُ عنهم في عمليات اغتيالاتهم وفضلياتهم حلكة الليل على سواه.

قبل تحركه بقليلٍ، لحقته أمه راكضةً معتذرةً عن نسيانها سن الثعلب المعلق على قلادةٍ حيث يوضع على رقبة الشخص حمايةً له من الغيلان والغفاريت التي تتشكل على هيئة أفاعٍ، فقال الابن الشاب لأمه:

- يا أمتاه، سن مخلوق لا يقارب مخلب الخالق، فالرحمن معي وهو يحميني ويحميك.

- نعم تألب رياض معك، وخذ هذه القلادة معك يابني من أجل أمك التعيسة، كي أنام مطمئنة عليك.

أخذ قلادة الثعلب بِرًا بأمه، رغم شكه بجدواها، وأخذ يردد في نفسه: كيف لسن ثعلب أن يحميني من آفات البدلاء؟ كل

أسناني التي سقطت منذ نعومة أظافري لم تستبدلها الشمس بخير
بل هي الشمس نفسها تطلب الرزق مثلاً نطلب نحن منها و يأتيها
رزقها من مولى أقوم منا جميعاً.

تحرك أخيراً بدون توقف إلا في الليل لباساً وراحةً، والنهار
معاشاً وشدةً، ولم ينزل عن ظهر البعير إلا وقت الغسق، أما وقت
شروق الشمس يستأنف السفر إلى خيام العجيج.

أوقف البعير حتى يرتاح، ثم لم تلبث السماء حتى خفت
سطوعها، واحتفلت نجومها.

جلس موجهاً قبلاً على ضوء القمر الخلاب يتمعن ويتفكر
كيف لصنم جامدٍ يصنع هذا العالم المبهر في تصويره البديع نجوماً
صغريرة ولكنه يعلم أنها ضخمةُ الحجم ولم تُصنع عبّاً وفق قوانين
عشوانية، بل خالقها كيان جبار يفوق هاته الصخرة الزائلة، معلنًا
من الليلة هاته وصاعداً رفده للوثنية.

استرخى على كثبان ناعمة ونسائم خفيف البرودة لا يرتفقى
للزمهrir، يأكل الأقط ويشرب معه الماء لتخفيض ثقل الأقط على
المريء. في لحظةٍ فقط أصواتُ الرياح وحسب هي المميزة، وإذاً
بالأرض تهتز قليلاً اهتزازاً لا يثير الريبة ولكن يزيد النباهة قليلاً،
إن نهاية القمر اليوم مكتملة في طور البدر وشعاشه يظهر بعض
الأجزاء المتناحرة من الصحراء، إنما لم يقُم الرجل حتى حسّ أن
الهزّة ازدادت أكثر مما سبق!

خرج من بقعته ولوح بناظريه يمنةً ويسرةً؛ فوجد ضالته المرعبة، إنها آفةٌ سوداء أكبر مما تصورته البشرية في جُل نطاقِ أطوارِ حياتها، حيةٌ ضخمةٌ يلمحُ جزءٌ منها من بعيد، كان البعير وصاحبِه فوق التلة الصحراوية مما مكنته من رؤيةٍ مجالٍ أوسعَ، إنها أفعى لا مثيل لها، حتى البعير فضَّ من مكانه خوفاً رغمَ أنه لم يرها بل الهزة هي أعظم على الحيوان، حاولت البهيمة التوصل عن المكان ولزمها راعيها فبرّكها في مكانها خشيةً من هروبها.

في نفسه يردد وفرايصه ترتعد : ما أعظم هذه الآفة، مدبر الحياة الأعظم جُرِنِ أنا ومن معي نزوحًا من مخلوقاتك المسيبة لك، عالم العلماء أنت ولينا ومولانا أضلُّ عنا معجزاتك في الأرض.

رمى سِنَ الشعلب مكذبًا له، ومصدقاً لخالق الكون وخاضعاً له، ولم يقم عن خضوعه على الأرض حتى خرجت الشمس، حيث اختفت الحية السوداء المرعبة من مكانها، وجُرتها هبت عليها رياح الصحراء حتى طمستها. ركب البعير ونزل بعيداً ولم يبقَ إلا القليل على خيام العجيج، وبعد رَدْحٍ من الوقت ظهر سوادُ الخيام المشعرة من بعيدٍ وعليها أفواج من الناس كأنما يحومون عليها وما هم إلا بباحثين عن رزقهم.

عندما رأه الصبيان هلعوا إليه كالكلاب الجائرة الطائفة حول اللحمان؛ رغبةً منهم في عرفان الغريب وسؤاله عن سبب مجئه، فقال:

- أنا جاركم، لا تقفوا أمام البعير القارح.
وإذا برجل يلحق الصبية حتى يزيحهم من الدابة وراكبها الذي
مِيَّزه عن رحلات سبقت، ومعذراً له:
- الصبية لم تميزك ومرفوع عنهم الخطأ، أرم العقال ليّ حتى
أوجه البعير لك صوب الخيمة.
- لم تفعل الفتية الكثير، مجرد أطفال تلهو ولا حرج في ذلك.
- صدقت، ولكن إن لم أكن وقحاً ما هو سبب مجيئك وسبق
أن أتممنا معك آخر تجارة قبل فترة وجيزة، في صفة فحول الغنم!
- إن لدى رسالة فحواها دخيل، دخيل أستباح أرضنا ودخل
خيمنا ولم نقدر على رصده.
- وأتيت للمساعدة منا؟
- لا، ولكن لا أتهمكم أيضاً، فإن أقرب تجمع قبالتنا هم
أنتم، لا أحد سواكم.
- يا همداني، أبناءنا ممنوعون من السفر بالبران؛ فكيف
قدروا على الوصول لكم في جزء يوم؟
- لا أتهمكم كما قلت، وعلى هذا؛ أريد تقليل هذه الحادثة
مع كبير القوم عندكم.
ووجه المضيف الضيف إلى دار كبير القوم، في خيمة وسعتها ثلاثة
خيام، ييرح فيها السقاة يرمون الفنجان على البعيد والقريب، ولا
تنام دلالهم ليلاً حتى تسقي الجميع. عندما دخل على كبير القوم

قام وجهاه خيمة العجيج مرحبين بالضييف حتى مر عليهم جمِيعاً،
وأسند نفسهم على مسندٍ قبالة شيخ القوم.

سَكَتَ الجميع في انتظار الضييف في خبره، واستمر الحال دقَّاً
خلف دقٍّ إلى أن كسر أحد رجال القوم هذا الصمت بسؤال الضييف:
- سمعت أنك آتياً في شَكِيَّة على حق خاص، وكانت هذه

الشَّكِيَّة تخص خيامنا في متطفَل مجھول تظن أنه منا؟

الْتَّفَتَ شيخ القوم ورد على السائل المتعجب من رجاله:

- غير صحيح، لم يشتَّكِ أحد علينا، منذ أزمنة ولت، وبطبيعة
الحال لن يأتي شخص اليوم يشَكِي مظلومته علينا، على هذا دع
الحمداني يتلو ما لديه.

- أنعمت عليك تأبِر رِيام بالرِّزق، لطالما كانت خيامكم
مصدر حياة في كافة المنطقة، نشتري منها ونبيع لها، نتبادل
المعارف بيننا، والأخبار حولنا، والحماية علينا، ولم يحصل أمر
منكم منذ نعومة أظافري، حتى أني لم آتِ تظلماً عليكم، إنما
بطبيعة الأحوال لا قريب حولنا سوى أنتم والآف...

تصلب وكان يغوص في جسمه سُمٌ مثل سُم زعاف، متذكراً
الحياة المارجة من نار، وكيف نجا وقدر على نسيانها!
أنها آفة ترتجف فرائص أعتى المخلوقات في الطبيعة منها،
وزحفها عنه كان أتعجب مقدرة له، ولكنه عموماً رجع إلى صوابه
متناسياً وجابرًا نفسه على النسيان حتى يقوى على الحديث،
وأكمل:

- أنت وماشيتنا، ولا قريب لنا غيركم وغيرها، وعلى هذا لا
نية لي بالقول زوراً عليكم، وإنما أتيت للقصي عن آخر زائر لنا من
طرفكم وعلى أحدث جسور أستحدث من طرفكم فيمن يأتي
إليكم طالباً العبور أو التوقف استجماماً حتى يشتد قوامه إلى
الرحيل.

- إن جسور خيامنا لا تصل إلى خيمتكم وماشيتكم، ولا إذن
للترحال والعبور إلا مني، ولم يصلن شخص يأتمن مني الإذن للسفر،
وحتى بعراننا وخ يولنا مربوطة في سياجات مسورة لا دخيل أو خرّيج
منها إلا بإذن مسبب مني. لكن أستطيع الإشارة إلى أحد نقدر فيه
على مساعدتك، أنت ضيفنا وأهم الرجال المتجرين معهم، ولن
نسمح لك بالذهاب حتى تحصل على المعونة منا، سنرسل معك
رجلين من شجعان قومنا بنصولهم المزخرفة، معك حتى تسقط
الدخليل على قفاه، وتألب رياض معنا.

- حقاً لم آتِ عبّاً، كرمكم غطى على عيوبنا، أتيت شبهه متعمدٍ في نسب التهمة لكم، ورددتم عليّ بهذه الواحة من كرم، طال بقاوئك يا كبيرنا.

وعيد الأبن إلى أمه تحقق، فلم يمسِّ عند هاته الخيام، وسيرجع
بمشيئه ربه الجديد إلى أمه لو ارتحل الآن، وهذا ما حدث، وجد
البعير مُغدق بالطعام والماء يكفيانه حتى أسبوع، وأثنين من الفرسان
بسيوفهم خلف البعير يسوقونه.

ساروا ثلاثة في صبيحة، قبيل حلول الظهيرة بساعات طويلة، الهمداني فوق بعيره، والفارسان على أطراف البعير حراسة له من قطاع الطرق. عندما حللت الظهيرة وقفوا للتموين من البعير سقياناً من العطش ودرءاً من الجوع، وحدث حدث لا يتكرر إلا قليلاً.

حدث كسوف للشمس حول نور الشمس إلى ظلمة، وكأنما حل الليل من جديد، لم ترتب الرجال من الموقف تعوداً على ظاهرة الخسوف القمري والكسوف الشمسي الطبيعي المشابهة مع ظواهر العواصف والأع杰، وأكملوا سيرهم في ظلمة طامسة شاملين على التوقف عند مقصدتهم في رحلة يتوقع منها الغرابة.

في مسیرتهم هاج البعير رغاءً عليهم، وهي حالة حدثت مسبقاً
عندما كان الابن ذاهباً إلى خيام هذين الفارسين في الليلة الأولى.
ارتعب البعير وكأنه جس أمراً معيناً وأدرك الحبكة الملعونة
التي اقتربت، نط الابن قفزاً وبرأك البعير حتى لا ينفض البعير هرباً

منه، والرجلان متعجبان من صنيعة الابن على بعيره، وإذا بواحد منهم يسأل في دهشة وعلى سماته الفجوع:

- لما بركت البعير، ونحن في صحراء فضفاضة خالية؟

- إنها ليست بخالية، فيها سواد الخبيث، المتلخص على الضعف، والمتمكن من الهزيل.

فرد الفارس الآخر:

- أي سواد تقصد؟ إن هذا الكسوف المتزامن، يعايشه هنا المعاصر، ويمر علينا كالمسافر!

- يا رجال قوم العجيج، إنكم لا تفهون الحقيقة الخبيثة، إن هناك في طبيعتنا القاحطة أكثر من ما شاهدتنا ورجالنا، مخلوقات ليست من عالمنا، تترصد أضعفنا وتقوى على غير المؤمن منا.

إن بعيري وسفينتي في الصحاري، بطبيعة هذه المخلوقات الرفيعة العلوية، تتميز في مقدرتها على استشعار البعيد الغريب، إن ما سوف تشهدونه يا رجال، سيغير وعيكم عن هذه العالم الواسع، سيمدد منظوركم القصير إلى أمد المديد، فاصبروا معي واحتسروا.

لم يفهم الفارسان المغزى من كلامه، وإنما في نظرهم رجل جن جنونه حتى أوقف عليهم قافية الرحلة، وهما مجبوران على الوقوف معه تتنفيذًا لأوامر كبير قومهم، وعلى هذا اضطرا للاستمرار على هرطقة الابن في حديثه الخيالي عما وراء الطبيعة وهو يردد لهم ساجدًا - استعدوا ثم استعدوا - بصيغة الجمع وهما رجالان فقط،

موضحاً احتمالية شمولية الخطر إلى كافة الحمل من البعير والرجلين حتى هو بنفسه.

مردح من الزمن والرجل ساجد، منتظراً هدوء البعير، فإذا هدا البعير اطمأن، ولكن ما زال البعير يرغو بلا حسيب، حتى طفح الكيل لدى الرجلين وقررا إرسال رسول منهمما يُنبئ شيخ القبيلة بمصيبة المصاب معهم الذي جن جنونه.

حمل الفارس نصله وقربته وخرج من نقطة القافية ودب إلى إياه في عقر داره حتى يخبر القوم بما حدث، فهو في نهاية الأمر جندي لا يصنع الأوامر بل ينفذها حتماً عليه وإن كانت عقوبته نفياً في أقل الاحتمال وفي أقصى العقاب شنق حتى الموت. وعندما بلغ منهم قطر شعرة أشتد رغاء البعير صياحاً ولم يعر له شيئاً لأنه جندي سبق وأن جابه صيحات الحرب المرعوبة رعباً والأعنى من صياح البعير الزائل.

في وهلة، ظن الفارس أن الأمور على ما يرام، ولكن عندما قطع شوطاً عن قافيته حتى زال من ناظري أصحابه؛ شهد أفعز ما رأه في حياته، حتى أصبح يردد في جوارحه – إن هذا ليس من فوق الأرض بل مخلوق من تحت الأرض فاحمّنا يا تائب رياض – وفرائصه ترتعد رهبة مما شهد.

سمعَتْ صيحات من بعيد، وقام الابن فزعاً من سجوده يلتف من حوله بحثاً عن الصياح، ولكنه وجد الفارس المتبقى قاعداً على ركبتيه ينظر على جهة الصياح، فسأله:

- أين حلّ رفيقك؟

- أخي وعضيدي وسندى، حتى الغزوات لم تجعله يندب بالصياح على الإطلاق، هناك أمر مرعب في هذه البداءة اللعينة، مخلوق ليس منا بل والرب إنه علينا، يا تائب رياض انقذينا.

- أصنامكم البائدة المتصلبة لا تسمن ولا تغني من جوع، تعبد شرّاً ماتوا من قبلك، فلو كانوا آلهة لأنقذونا ولكن خالقك الذي في السماء هو المعين.

- أنت رجل مريض ولست في عقلك، تسجد للنجوم وتظن ربك فيها، وهو في الأرض معنا.

أدبر الفارس وحنّ على صاحبه ركضاً بعد السجال، وحدثَ ما حَدَثَ مع أخيه الفارس فصاح صيحةً لا تشهد لها حتى في الحروب، صيحة رجل احترقت كل خلية في جسده ولم تُعنِه آلهته ولا بمنثقال ذرة.

وصلت صيحة الفارس الأخير إلى الابن، وعندما صبر و قال – رب آخر جنني مخرج سلم وأحفظني أنا ومن معي راجعين إلى قعرنا آمنين – فمررت الآفة المارجة الخبيثة أمامه بطول مهول لا بدايةً ونهايةً له، وعرض تبييض منه العيون، ولم تقو على القرب من الابن وبعيره حتى هبت بعيداً عنه واشتعلت نيران الشمس من جديد لتثير سواد الشر من الأرض.

لا فائدة تُذَكَّر من التحقق من الفارسـين، فـأـمـهـ أـولـىـ مـنـهـماـ،ـ
الـذـيـ وـعـدـهـ بـالـقـدـومـ لـاـ بـالـتـأـخـيرـ.ـ اـسـتـمـرـ فـيـ الرـحـلـةـ يـسـابـقـ الزـمـنـ لـعـلـهـ
يـصـلـ إـلـىـ عـقـرـ دـارـهـ وـمـاـ زـالـ خـوـفـ يـتـرـصـهـ بـطـبـيـعـةـ النـفـسـ الـبـشـرـيـةـ
الـوـاهـنـةـ مـنـ الـمـجـهـولـ.

فـُدـرـ لـهـ أـنـ يـصـلـ قـبـلـ الشـفـقـ فـيـ حـيـلـوـلـةـ الـمـغـرـبـ،ـ وـاـسـتـقـبـلـتـهـ أـمـهـ
فـرـحـاـ وـتـهـلـيـلـاـ،ـ فـقـامـتـ بـتـجـهـيزـ الـمـأـكـلـ وـالـمـشـرـبـ لـهـ،ـ وـالـمـلـبـسـ الـطـاهـرـ
عـلـيـهـ،ـ وـإـنـمـاـ مـاـ بـعـدـ التـعـبـ يـأـتـيـ الـرـاحـةـ،ـ وـفـيـ حـالـتـهـ زـادـ التـعـبـ عـلـيـهـ،ـ
لـاـ دـخـيـلـ قـيـضـ عـلـيـهـ،ـ وـفـارـسـانـ فـقـدـاـ فـيـ الـعـرـاءـ،ـ وـلـمـ يـتـحـصـلـ عـلـىـ
فـائـدـةـ مـرـجـوـةـ.

عـنـدـمـاـ أـحـضـرـتـ أـمـهـ الـمـأـكـلـ جـرـّـتـ الـكـلـامـ إـلـىـ سـؤـالـهـ فـيـ أـوـلـ
الـكـلـامـ عـنـ:

ـ أـوـجـدـتـ الـدـخـيـلـ عـلـيـنـاـ؟ـ

يـاـ أـمـاهــ أـرـادـ التـعـبـيـرـ عـمـاـ حـدـثـ وـلـكـنـ جـنـاحـ الـذـلـ مـنـ الرـحـمةـ
كـانـ أـقـرـبـ لـهــ كـانـ طـرـيـقـيـ مـيـسـرـاـ،ـ أـمـاـ الـدـخـيـلـ لـاـ أـمـارـاتـ عـلـيـهـ
أـنـهـ مـنـ خـيـاـمـ الـعـجـيـجـ،ـ وـرـبـمـاـ يـكـوـنـ مـنـ قـطـاعـ الـطـرـقـ الـذـيـ يـسـتـوـلـونـ
عـلـىـ الـقـوـاـفـيـنـ.

ـ وـلـكـنـاـ لـمـ نـشـهـدـ قـطـاعـ طـرـقـ مـنـذـ زـهـرـةـ عـمـرـيـ مـعـ وـالـدـكـ حـتـىـ
الـآنـ.

- الدنيا لا تبقى على حالها، وقطاع القوايف يبدلون مواقعهم
باستمرار وبلا كلل، إنما خطتي في القبض ستكون محكمة
ودقيقة ويجب علىي أنا وأنت الإحکام بها، والتصرف بناءً عليها.
- أنا معك يابني، في السراء والضراء.

- أن الخطة ستبدأ بالتللاعب على الدخيل على أنا غير متواجددين
كالعادة، نرعي ماشيتنا من إبل وبقر وضأن، ولكن الحقيقة
ستكون مغایرة لهذا التخيل. سنربط الإبل والبقر في مكان بعيد
جاءلين منه مصدقاً أناً يا أمي ترعينهم، أما الماشية سأجعلك
تسوقينها وحده وحده، أما أنا سأكون في الخيمة متربصاً للدخل
البغيض انقضاضاً عليه في الوقت المناسب.

- ولكن ماذا عن حين المؤامرة؟
- يا أماه، إن ما نعرفه عن هذا الدخيل هو تلصصه على
السكنى وقت الظهيرة، وبغضه لليل بلا سبب، وعلى هذا الأصل
سنبدأ العمل بالخطة بعد الفجر وقبالة ظهور الشمس من مشرقها،
وإن الصباح رياح.

ناما حتى ظهرت سعادير الشمس موضحة أن الفجر أنقضى
وحل الصبح، فهلع الابن إلى أمه حتى يبدأ العمل على الخطة مبكراً
قبل قدوم المعدي اعتداءً مرة أخرى كما تبارى لهما. قامت الأم
وربطة البقر والإبل في عقر مسوار، أما الماشية ساقتهم بعيداً ليظن
من يسترق الأنظار عليهم أن الخيمة خالية من أهلها، وضامية من

حراسها، ولكنه أعمى عن ضالته وضلّل عن طمعه من أصحاب
الخيمة كيدا له.

ساقت الأم نفسها خارج حدود الخيمة رعيًا للأغنام، والابن
ذهب نفسه خشًا في الفراش انتظاراً للصلوٰك المشرد، إذ سينقض
عليه انقضاض السباع على الضباع.

مرت جزية قليلة من الزمن حتى بدأت خشخشة في خلفية الخيمة
تخشش، وكأنما شخص يبحث عن شيء ولم يجده، حتى التف
من خلف الخيمة إلى شرفة الخيمة ووقع في الكمين المكيد له
خصيّصاً، فقفز الابن وإذا هو يُفجع مما رأها!

- من أنت يا امرأة؟

صرخت الآنسة فجأً وردت:

- شهدتني ومنك الزواج، وإذا رفضت؛ ستطاردك أخوتي حتى
تقبض على روحك ولست عنهم بعيد.

- لم أختل بك، أنت الدخيلة علينا محاسبتك في اعتدائك على
حرمة أرضنا وخيمتنا.

- الخالق يعلم أنني لم أنو الشر لكم، كنت أعلم بحالك أنت
وأمك الطاعنة في السن، فلا معين لكم في تحضير الطعام، وإنما
نويت نية حسنة معكما. أما الزواج فهو مطلب عليك وإلا آذتك
أخوتي، ويجب عليك أن تأتي.

- لا أعلم، إني لا أعرفك يا امرأة، وإنها خطوة كبيرة علىّ
لدي ماشية ودواب تحتاج لعناية مني، وأمي لها حق علىّ، وفي نهاية
المطاف ما زلت لا أثق بك.

- لا تسرح بعيداً في الأعذار، أنا سأقيم معك، وأساندك نهاية
عمرنا، أما عن مكاننا فلن تجده على الإطلاق في هذا الحيز
الواسع العلوي، إن عقرنا تأسس في مكان بعيد تحتاج إلى دابة
خاصة للوصول له.

- كم يبعد من هذه الخيمة؟

- بسفنكم البسيطة ستأخذ منك الدهر بأكمله، أما بسفننا
سنصل في دق زمن ولن تشعر بتعب الطريق، والآن أنا على عجلة من
أمري، عشيرتي تتحسب وقت ذهابي وإيابي، سأتيك غداً.

ذهبت الآنسة خلف الخيمة وعندما لحقها؛ لم يجد لها أثراً،
وكانما ابتلعتها الأرض. كانت المرأة طويلة القامة طولاً يندر أن
ينطبق على المرأة، وجمالٌ مغایرٌ للمقاييس الطبيعية وكانها
شكلت هي وجهها بنفسها، أما عيناهَا فكانا يغطِّيهما الكحل
الأحمر وشعرها شديد الحمرة، حيث افتعلت فعلها إعجاباً بهذا
الابن المغوار، وربما عذرها في الحن عليه وأمه كان حياءً لكيلا
تصبح سلعةً أمام رجل غريبٍ عليها.

طال النهار والليل ووالدته لم تصل، حيث رغب في اطلاعها
على ما حدث وأخذ رأيها، ولكن ما حدث أن الغنم رجعت وهي لم

ترجع. هلَّعَ الابن خوفاً إلى الصحراء المظلمة وهو عالم بما حدث لأمه ففي أقل الاحتمالات أنها سقطت من كثرة المسير، قاتلاً نفسه بالندم على توسيطها في رعي الأغنام.

حلَّ الفسق، واسوَّدت الأرض حيث تتعذر الرؤية، تردد الابن في الذهاب متذكراً أهواه الليل وما تحمله من خبايا مريعة، وما الآفة المارجة إلا غيض من فيض يتواتد في الليل. إنما أمه ضاعت في الصحراء وربما تكون جريحة في استفادة للمساعدة؛ وعلى هذا انطلق راجياً أن يجد أثراً يدلُّه على أمه.

لمح ناراً تشتعل تدليلاً على نقطة تجمع ربما في كفنها قطاع طرق والآنسة التي خطت عليه تكون منهم، وتردد في التقرير حول فائدتهم - لا أحد سواهم - حيث جزم أخيراً على التوجّه إليهم، وعندما اقترب حست به الجماهير حتى فزعت، فسبقهم بالرد:

- لم آتِ لافتعال الشر، أتيت بسلام باحثاً عن أمي - وعيونه تتوجس اليمين واليسار منهم حتى يكشف حبكة السرقة التي ستطاله ولكن لا أثر لأي امرأة - كانت ترعى الغنم، حيث الغنم راجعة وهي خالية لا أعلم مكانها.

رد أحد الرجال الذي ربما يكون قائد هذه القافية وربما الحملة المجهزة للسرقة:

- على مهلك، قبل الاستهالة من أنت؟

- أنا الهمданى.

- وأين هي ديارك؟

- أنا - تخوف من ذكر خيامه لعله يصرف انتباهم لو أرادوا سرقته في غيابه - من خيام العجيج.
- نعم، خيام العجيج يذاع صيتهم بالتجارة مع أبعد الأبعدين.
- الآن نبدأ في المتن، متى غدت أمك عن ناظريك؟
- لقد كنت أرعى الإبل والبقر وأخذت أمي الغنم لتحمل المشقة عني في وقت انشغالها مع رعي الماشية الأخرى، وعندما أنتهيت، ترقبت مجئها ساعات من عجاج ولم تأت إلا الضأن والمعزى بدون راعيتها؛ وهنا ثار رعي خوفاً عليها وأنا عالم أن مكروهاً أصابها.
- إذاً ما نفعنا ما دام أنك من رجال العجيج ذوي الفرسان السباع! نحن مجرد مرتزقة نبحث عن لقمة عيشنا في الاتكال على معونة القبائل التي ترغب في جنودنا عند الحاجة، حاجات في سبيل الحرب عندما قيامها لن تجد رجالاً تحمل النصال والرماح كمثل رجالنا، وفي سبيل الحراسة لا عيون تحمل السهر غيرنا ولا قلوب تصبر على الفظائع سوانا. يا رجل نحن لا نعمل بدون مقابل.
- إن مقابل عرق جبينكم سيكون من ماشيتكا، فلدينا النياق والبعران والبقر والضأن والمعزى، خيارات كثيرة مقابل مساندتكم لي.
- مقابل كل رجل من رجالنا بغير واثان من الضأن. ضحك ظاناً أن الأبن لن يضحي بهذا الثمن.

- أوافق على شرطك، كل ما أحتاجه هو فارس منكم
يخلصني من علتي وَهَمِي.

أتاه أحد المرتزقة بجواده وطلب منه الوثب على الجواد حتى
يستقر فيه ولا يسقط، مردداً له:

- ثب يا رجل على الخيل ولا تخف.

- أقصد الركوب عليه؟

ضحك الجميع من سوء تقدير الابن لمعنى الكلمة موضعين له:

- إن الركوب وحده لا يكفي للاستقرار على دواب الحيوانات،
إنك راعٍ لدواب كثيرة، وفي حالة البعران من الواضح أنه سبق وإن
ركبتَ على البعران فكيف قمتَ بذلك؟

- أبِرِّك البعير حتى ينزل إلى مستوى جسدي، وبعدها أطمر عليه
حتى أجعله مَطِيَّةً تحت جسدي.

- إِذَا في حالتنا لا نستطيع تبريك الأحصنة، فهذه ذوات الحافر،
وتلك ذوات الخف، وإن لم تشب على الجياد؛ فلن تستقر أثداء الحمل،
لا سِرْرَيُّقر في الوثب، كل ما عليك فعله هو القفز قفزةً ملوحةً في
الأعلى، فإذا فشلت لن تستقر على الحصان، أما لو نجحت في
القفز؛ فإنك لن تحتاج لتعديل جسدك. **الخبيبة كلها** في عدم تعديل
الجسمان بعد الوثب.

وشب الابن وثبًا شديداً، ربما يعزى السبب لارتفاع ضجيج الدماء في جسده إما خوفاً على أمه أو ارتعاباً من فظاظة الآفة المارجة الهائلة التي سيتباً بها.

لما انطلقا، اقترح المرتزق على الابن حيلةً تقليديةًّا لقصِّ أثرِ أمه، ومنها سُتُّعرف الحبكة بكل تفاصيلها:

- هل تدل آخر مسارٍ اتجهت معه أمك؟

- المسار الذي قدمت منه إليكم، كانت والدتي ترعى الماشية، وأنا على جزم أنها لم تغير مسارها، بل أنها لم تبعد كثيراً.

- إدأ ساعدتنا الآلهة. إن البحث في هذا الكثبان الغارق بالظلمة لأمرٍ مستصعب على الأنفس، حتى أعتى الرجال أمثالى لا يقدرون على مواجهة خبايا هذه الصحراء اللعينة.

ظن الابن أن المرتزن المتفاخر بنفسه يدرك ما تحمله الصحراء من آفات كالحية المارجة الخبيثة، وعلى هذه البينة رد :

- ما لها الصحراء، عشنا معها عصوراً ولم نواجه خطراً غير البشر - يحاول أن يجس النبض لعله يسْتَخْرُج مدركات الرجل الصحراوية - ولكن ربما تقصد شيئاً آخر أجهله أنا؟

- يُقال أنها خرافات من جموع الناس، ولكنني أصادق على حقيقتها، مخلوقات يا رجل، مخلوقات ليست من عالمنا، بل وحوش تتذكر على زي إنس حتى إذا فاجأتها تخرج لك على هيئتها الأصلية.

- إن قلت لك أني مصدقاً لما أنزلت من حديث، فما هي هيئتهم الحقيقية لو تذكروا في الأصل على خلقةٍ بشرية؟

- لو كانت مخلوقاتٍ مسالمةً؛ فإن أهل الخبرة في خبرتهم فيما وراء الصحاري والجبال والسهول يسمونها الجن ومفردها جنٌّ، أما المخلوقات المؤذية والتي تضرك أكثر مما تنفعك تدعى عفاريت ومفردها عفريت.

ويكمل المرتزن :

- إن أدهى هذه المخلوقات كيلاً وأقساها جرماً هم الغيلان المتغولة، التي تأتي في الليل على صورة شعاع كأنه نجم مشتعل، يجذلك إليه حتى يضرك في نفسك ولن تنجو معه أبداً مهما قويت عليه أو كثرتم عليه، مخلوق مفزع وخطير بحق. إن دواهي العرب قسموا هذه التصنيفات إلى أكثر مما قلت لك، ولكن لا أقدر على

الاستذكار إلا فيما سمعت أنت، وعلى هذا يجب أن نصير نابهين في خطانا وبحثنا، وأن نستعمل الطرق الشعبية في تتبع المفقودين من قومنا وغيرهم.

- بالنسبة لي، لم تظهر لي مخلوقات كما ذكرت، ولكن
تشكلت لي آفة عملقة غطت عليّ كل مساراتي حتى قبعت في
بعمتي راجيًا المعونة من السماء لتقذني، حية لونها أسود عرضها لا
يحسّب وطولها لا يقدر، ابتلعت اثنين من الفرسان كانوا بصحبتي،
ويا لها من أحداث مخيفة.

- إن من هذه المخلوقات ما يأخذ أشكالاً عديدةً، منها أشكال الحيوانات كالقطط والثعابين، وصولاً إلى هيئات البشر من نساء ورجال وأطفال أيضاً. على هذا، فأنا أصدق روایتك، وهناك الكثير أبشع مما قلتَ وقللتُ ينتظرنَا.

أما الابن فقد استرجع ذكرى الدخيلة عليه، دخولها من
اللامكان في اللازمان وخروجها بنفس دخولها زاده شكاً.

حرثا الصحراء سائرين إلى المسير الذي مشت إليه الأم ولم تعد،
وأكمل الابن الحديث:

- لقد ألزمت علينا أتباع الطرق الشعبية في تتبع فقيدنا! كل ما
يدور في خلدي هو أصول هذه الطرق الشعبية، فما هي بالتحديد؟
وكيف ستفيدنا في إيجاد أمي؟

- لدى في جعبتي طريقة كنا في السابق نستخدمها حتى مع
الأحياء القابعين حولنا لنجزم على حياتهم من مماتهم، ولكن لها
مثالبها الموجعة وأنا عن نفسي أبغض ترويضها إلى درجة يجعلني
أبغض هاته الفكرة.

- ولما تبغضها؛ ما دام أنها تظهر الحقيقة لنا! وما كان مقصداك
عندما أدركت لي أنكم استخدموها مع الموتى منكم، حيث إن
منيthem حلت ولا حاجة لاتباع الطريقة!

صمت المرتزق قليلاً، حيث إن طرقة كهاته، تعطي إقراراً
نهائياً في تحديد مصير المفقود حسب ظن الناس وقتها، وجهلهم في
تقدير حقيقة الأمر الواهن عن الواقعي، وعلى هذا رغب في اتباع
هذا المذهب الضامي وتصديق المرتزق حتى ولو كان في سبيل قطع
الشك باليقين.

يرد المرتزق:

- لن أطيل الكلام عليك، إن هويت في سلك هذا الطريق فلا عودة معه. هل حقاً ترغب في ملاحقة أهوائك رغم احتمالية تدميرها لك؟

- لم أرفض العرض هذا، وما زلت مُصرّاً على استحضاره إلى مشهد اليوم لعله يفيينا في تحديد أثر والدتي، وارجُ أن تستعجل في تذكرة طريقة أجدادك؛ الليل طال علينا، وطال عليها وهي ربما تكون مرهقة، فربّ أحمها.

استهل المترقب في ذكر أسلوب اتبّعه أجداده عندما كانوا يفقدون أصلاً أو فرعاً منهم؛ يغدرون القدر بالذهب إلى بئر سُيّق لهم على مر العصور أنه بئر داخله جسر يجسر السمع بين أهل الأرض وأهل النعيم والجحيم على سواء، ومن خلالها يعرف أمران.

الأمر الأول إن ناديت بالصوت على فقيدك - ويجب أن يكون بنفس الاسم الذي سمته أمه به وليس أباً - ورد عليك هنا تعرف حقيقة مفجعة، وهي موت من تبحث عنه وذهابه إما إلى أرض المحرقة أو إلى أرض المقامات.

الأمر الثاني - هو المستحسن - ألا يلتجأ رُدّ لك، وهنا تقاوم المثالب وتذهب ساعياً إلى إيجاد من تبحث عنه؛ حيث حقيقة وجوده تم تأكيدها.

بعد كل هذا الوصف السابق للشرح مروراً إلى تفسير حركيّته إلى التبؤ بالنتائج التي تكون خاتماً للوئام، وحسب وصف المرتزن فإن هذا البئر هو السحر بعينه.

عقب الابن على المرتزن متسائلاً عن هذا البئر، فرد الفارس المرتزن:

- بئر الهداج، الذي ما زلت أتذكّر بيت شعر لا أستحضر إلا نصفه:

بين بياض العظام يفيض هداع.

- هو في الأصل بئر فيه من الماء العذب ما يشبع جماهيرًا، ولكن طال الزمن عليه واستهلكته رجالات من قبلنا حتى بقي من الفيض غيضٌ تسلل إليه أجدادنا ونهبوا حاجةً إليه لا إسرافاً.

- وأين بئر الهداج هذا؟

- من حسن حضك أنها في منطقتنا الأم، تيماء.
لم يكن الابن الهمداني من مصدقى خرافات الأعراب الزائلة، فحتى الأصنام لم يسجد لها من تأليب رياض وغيرها من الوثنية الصالدة؛ ولكن في قطع العذل تقوم الكبائر في سبيل إراحة الضمير، وعلى هذا المنطلق لم يتردد في الموافقة على خرافة بئر الهداج:

- إذاً توكلنا على الخالق الهاדי.

غِيّرَا مسَارَهُمَا وَسَلَكَا طَرِيقًا مُحَدِّبًا أَوْ دُعْهُمَا فِي رَحْلَةِ أَخْذَتْ
أَيَّامًا لَا تَحْصِى حَتَّى وَصَلَّى إِلَى الْبَئْرِ الْعَتِيقِ، الَّذِي تَظَهَرُ عَلَيْهِ
عَلَامَاتُ الْعَتَاقَةِ وَالْقِدْمِ. تَبَلُورَتْ فِيهِ أَجِيالًا سَلْفًا عَنْهُمَا حَتَّى قَضَوْا
عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَذْبٍ إِلَى عَدْمٍ.

أَرْدَفَ الْمُرْتَزَقَ مُسْرِعًا إِلَى تَتْبِيَهِ الْابْنِ:

- سَيَحْثُونَكَ عَلَى الْقَفْزِ فِي الْبَئْرِ؛ مُتَبَاهِيْنَ بِجَنَّةِ الْأَرْضِ عِنْدَهُمْ،
لَا تَسْتَسْلِمَ لِتَلْكَ الْأَفْكَارِ وَهَارِبَهَا كَالْفَارِسِ الْمُغَوَّرِ الَّذِي يَجَابُهُ
الْعَرِيَانُ بِلَا كُلُّ وَمَلْ.

وَرَدَ الْابْنُ مُتَعْجِبًا:

- مَاذَا تَقْصِدُ بِهَذِهِ التَّرْهَاتِ؟

- أَنْ كُنْتَ شَدِيدَ الْبَأْسِ لَنْ يَقْدِرُوا عَلَيْكَ، أَمَا مَغْلُوبُ الْحَالِ لَا
مُخْرَجَ لَهُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ التَّعْقِيَّاتُ سَابِقَةً، بَلْ أَتَتْ لَاحِقَةً مُتَأْخِرَةً، حِيثُ
لَمْ يَصْدِقْهَا الْهَمْدَانِيُّ لِكُونَهَا بَاطِلَةً مُدْبِسَةً عَلَى خَرَافَةِ.

وَعِنْدَمَا مَدَ عَنْقَهُ حَتَّى يَنْادِي أَمَّهُ، يَا قَطْوَفَ حَتَّى رَدَ عَلَيْهِ صَوْتُّ
سَمِعَهُ فِي صَفَرِهِ إِبَانِ نَعُومَةِ أَضَافِرِهِ وَلَمْ تَكُنْ أَمَّهُ:

- أَهَلَّا يَا بْنِي، أَنْتَ وَصَلْتَ لِمِبْغَالِكَ، وَأَنَا هُنَا لِأَنْجَدِنِي مِنْ
وَرْطَتِكَ، هَلْمَ عَلَيِّ فِي جَنَّةِ الْأَرْضِ؛ فَأَنَا وَأَمَّكَ بَانتَظَارِكَ عَلَى نَارٍ أَحْرَى
مِنَ الْجَمْرِ.

- يا أبتاباه، ذرني فأنا وحيد بدونك، فقدت أمي على غيابك،
وخرست الحياة بعد مماتك.

- أشهد أنك من صلبي، تذهب الأنعام ولن تذهب عنِّي، أقدم
للحياة معي.

محادثة هوجاء بين أبي مشتاق وابن لهفان، وإنما هو تصور تمنى
الابن لو كان صدوقاً، بل هو مخلوقٌ خبيث أراد سحبه جرّاً إلى
البئر الغائر حتى يسلب حياته، ولكن المرتزق النبيه كان نبيهاً في
العرفان، فأنقذ الابن من هذه الخديعة البائسة.

- ليسوا من تظنهم أنت، أنها مخلوقات نتنة تتغذى على عواطف
الناس المسكينة، فِيْق من غفلتك.

وصرخ عليه:

- دعني أذهب برفقة أسرتي، أنت لا تتمنى الخير لي.
وفي وهلة حسّرة وصمت واع اخذ منه ردحاً من الزمن ليس
ببساط، ختم المقال:

- تمنيت أن يكون هذا هو الواقع، أردت ذلك، وتمنيت حق
التمني، إنما الآن أنا مدرك أنني وحيد، في عالم حقير. لقد صاحبتك
أملاً في إيجاد من فقدت، بل أنني عارف أنها توفيت، ولكن ساقتنى
الأقدار معك راجية أن تجد خاتمة حسنة. الآن يبدأ مفترق طريقنا،
أما مقابل حملك لي فخذ هذا السلسال المرصع بالذهب، لقد كان

لأمِي ولكن الآن هي عند من يسكن النجوم ولن أستغل أمواهها على الأطلاق في تحقيق أعمالي بل سأتصدق بها لأنها زائلة. ادبر والحزن في عينيه، منذ أن رجعت الأغنام بالضأن والمعزى إلى عقر مكانتهم؛ أدرك الواقعة القاهرة، في خروج والدته من هذه العالم البائس الوثنى. بدأت تتناول عليه سهوم الهواجس والتساؤلات، التي تحاول إقناعه ببساطة الموقف، ولكن فقدان الوالد أمره ليس بعليل، ووطئه على الشخص مثل النار التي تسيل بين الصخور لا نهاية لها.

ساق نفسه بين الصحراء وهو خالي الوفاض، بدون ماء ولا طعام، حتى الدابة ليست معه إنما خلا سبيلها، في كرية أنساته بطنه ورحلته الشاقة، حتى بعد مرور روح من الزمن قرر القعود استراحةً في مكانه ولم يبقَ على خيمته من مسافة إلا القليل الهزيل، إذ به يرى شخصاً مستنيراً من بعيد كأنه يحمل فانوساً في يديه. دب إلى جهة النور، ووجده رجلاً ضالاً ولكنه لم يكن مجرد رجل، حيث سبق هذا المرء الغريب بالكلام:

- إن أردت المعونة تعال بجانبي، ولك ما تتمنى وتشتهي.

- والمقابل؟

- كل ما تملك.

- أرفض ذلك، لأنني أعلم طبيعة جنسكم، أنكم مخلوقات حقيقة لا تعبأ مثقال ذرة في الناس، ولكنك لا تخيفني حتى ولو أظهرت طبيعتك القبيحة لي.

لم يستمر السجال بينهما حتى فضح الغول عن نفسه، وأظهر أصله من طبعه ولقد كان تحوله درامياً، حيث لف جسده عنه وعندها بدأت التحولات تظهر عليه، وبجسده يتبدل إلى اللون الأخضر متخدّاً من كائنات المستقع النتة لوناً له..

والأهم بنبرة الصوت تغير إلى نبرة شخص عملاق أحش:

- هذا أنا، وهذا أنت، رجلان ولكن من أسلاف ليسوا من بعض.

- لستَ ندّاً لي، بل مخلوق يائس قبيح تتغذى على من هم أدنى منك.

- نعم لسنا أنداداً ولكننا أكثر تفوقاً منك. إنما أرى بك ما يشير الاهتمام يا بشرى، لما لا تخاف من سادة الأرض والأكثرهم عظمةً ودهاءً منك؟ وما الذي يميزنا عنك؟ حسناً، أنك مجرد رجل بسيط يعتاش على حصاد الأرض النادر، ولا يعمل إلا في جماعة، واهن لدرجة أنه لا يحرث الأرض إلا بالدواب، وضعيف حتى أنه لا يقدر على مطاردة أرنب ليصيدها، والأعنى أنك وبني جنسك لا تستطيعون غلق أعينكم إلا وكل سيفه في مذبح الثاني.

- قد نكون كما وصفت آنِيَا، وإنما هذه الواقع لا تستبدل
حقيقة عدمية هيبيتكم لدى، إنِي لا أراك إلا عالة في الأرض، عابداً
في نهاية الأمر لصاقِل النجوم الذي خلقك من حلَة عفنة، أُعطيت
قدرات أحسن منا، ولكنك حرمـت من نعمة الفضيلة.

- وما هي هاته الفضيلة المزيفة؟

- فضيلة الرحمة التي فيها سخر خالق النجوم للأم محبة الأبناء،
وحماية الراعي على رعيته، ورعاية الحاكم العادل على
محكوميه، أمّا بنوكم فلا رحمة صُقلت فيهم سوى الحقد
والكراهية. إن انتفاء النفع منك سيهوي بك إلى أسفل الساقفين، لن
تجد راحماً من قومك يعفو عنك في أي صغيرة من صفاتك مهما
حدث.

لم يستمر الكلام بعد هذا الإجمال، ولكن رد الغول أخيراً:

- ألا تخاف مني؟ مع أنِي قادر على سلب روحك في لمح البصر
وأنت لا تعلم.

- أنك ببساطة لا تثيرأية مخاوف لدى، لقد جابهـت من هم
أشرس وأكثر متنـاً منك، بل الأخطـر.

بدأ الغول بالضحك واستهل:

- طبعـنا هو الشراسـة، وطـبـكم هو الخـوف. أني أـجزـم علىـ أنـ
انـقطـاع وـحـيـ الخـوفـ منـكـ لاـ يـرـجـعـ لـكـونـ الفـرـاسـةـ غـطـتـ عـلـيـكـ،ـ بلـ

إن هناك علة أصابتك، غيرت مجرى الحبكة التي كنت أخطط لها
ضدك. فِضْنِي بما واجهت.

- هل أصبحت الضياع تصادق السباع! يا للعجب، إن الرتوت
أمثالك لا تعرف مثقال خير فيها، الغول الذي سينهب مالي ويسلب
روحى، أصبح رفيقي!

- لم أجد فيك من جاذب لي، أنك لعنة حزينة، لم تعد حياتك
تهمك ولو كنت قانعاً بالعكس لما قربتَ مني.

إن الذي لم يخطر على باله، أن الغول سبق وأن ترصد عليه
والمرتزق حتى عرف طريق عودتهما والذى يؤدي إلى قافلة المرتزقة
المليئة بالأنعم، لهذا لم يكن يهمه أمره في نهاية المطاف.

- لقد فقدت أمي. يقال أن شعور وفاة أحد الوالدين أهون مع
شعور فقدان الوالدين لأحد أبنائهم، ولكنني مع ذلك أجّر نبرات
الحزن، وأدمع دموع الفقدان، وأنا عالم بأنهما لن يرجعاً فقيدي.

- يا لكم من ضعفاء يا بشرى، إن خصلة الفضيلة كما تسميتها
هي سبب تعاستكم، إنك ترمي سهوم الجروح على نفسك وهذا لن
يرجع لك فقيدك؛ من مات فلا مرجع له. ولكنني أكن لك مجاملةً
وقد تصبح مصادقةً في حقيقة أنك رجل استثنائي، لم تهبه مني ولا
حتى نطفةً. مع أن صنفك تتجمد الدماء في عروقهم، وتقف شعور
أجسادهم، وتتصلب عظامهم عندما يشهدونني في حلتى الطبيعية،
وعلى ذلك أشهد لك بالشجاعة والقوامة.

أخذته رأفة الوقت إلى أن طرح أسئلةً أغضبت الغول النتن:
- إدًّا، قل لي، ما هي طبيعة خلقكم؟ وهل لكم أزواجٌ من
ضلوعكم كالبشر؟ وأبناءٌ تعيلونهم؟
- إن حدودي معك لا تسمح بالوصول إلى اطلاعك على أسرار
بني جنسنا، فنحن أكثر ذكاءً من أن نكشف أسرارنا على آدمي
واهن.

أدرك أن استكمال القعود مع الغول مخاطرة لا فائدة منها، وإن
حللاً وماشيةً وصت أمه عليهما توصيةً إلى ابنها، مشددةً في قوله
له:

يابني، مالك فاحفظ، وحالك فتمسك، إن أقحط البشر في
الجماعة هم القواحط على أموالهم.
تذكر الابن وصية والدته، فلبي النداء وأدبر عن دنایا المخلوقات
حتى يربح وينجو.

في خضم الصحراء المتصحرة، من حسن حظه أن خيمتهم قريبة؛
لهذا سيصل إليها في رديح ضحلٍ من الزمن، ولكن عندما قدر ثم
فكر وجد أن رحلته إلى المرتزقة ثم هجرته إلى بئر الهداج أخذت منه
ليالٍ رجيمة حسب تقاديره.

يردد مع نفسه بأن الحلال الموصى عليه من أمي فني، ولا مرجع
أو مخرج من هذه الواقعـة. ربما ضاع الحلال من الأغنام والإبل عندما

قرر حينها ترجيح والدته على الأمور الدنيوية، فكانت النتيجة ضريبةً بين الحجاجين جعلته يفقد أهم ما يجعل الرجال من الغلبة. بعد مسيرته للرجوع وإذا به يصل قعره، ولكن لم تطل وقوته إلا واصطدم بحقيقة مهيبة!

وجد البهائم قانعةً في شبکوها، الغنم في الحظيرة، والإبل في مراها وبطونهم ممتلئةً وكأنما أحد كان يراعهم في غيابه عندما هج باحثًا عن امه التي قدر لها أن تموت. وعندما دخل خيمته وجد ثيابه جاهزة حيث غسلت وطهرت.

وعندما بدأت علامات الغرابة تسيطر على الموقف، بدأ العجب ييطل بالسبب، إذ اتضحت حقيقة الفاعل الذي رعى البهائم ونظف الملابس، أنها المرأة التي كان يظنها لصًا في السابق يتلخص عليهم ويعتدي على حرمة عقرهم. لم يكمل الصمت بقاوه حتى كسرته المرأة بسؤالها:

- هل تريد أن أحضر لك رغيفًا من الخبر تسد به جوعك؟ فأننا حلبت الغنم وجهزت لك الحليب مسبقاً.

- أقمت برعى البهائم طوال هذا الدهر؟

- نعم، ولم يكن تكلفاً مني، بل نجدةً لك عندما هرعت بحثًا عن أمك.

إن الجوع كافرٌ كما يقال، لم يأخذ وقتاً طويلاً للرد لسوء حالته، حيث لم ينم منذ ليالٍ، وبطنه تسع بعيراً.

- لو استطعت على ذلك، قوتك الآلهة.

فتحت كيس الطحين، وبدأت تشعل الحطب لكي تصنع لابن الجائع قرصاً يجراه من جوع الدهر، ثم دهنت الصاج بالطحين المخلوط بالماء حتى نضج الخبر فقدمته للرجل، الذي طار بهذه الوجبة البسيطة ولم يبق منها حتى الفتات.

استهل الابن:

- لا أستطيع أن أجزيك على فعلتك، مهما صنعت، رعيت الغنم والإبل، وكسيتني مما يلطف به المرء بطنه، وعلى هذه الصناعة منك، ذلك من الرؤوس ما أخترت من الغنم أو الإبل جزاء لك على كرمك و فعلك المشرف.

- لا تنسى وعيتنا، وأريدها مهراً منك غداً.

أدبرت الآنسة ثم ولت ظهرها له، وعندما خرجت من الخيمة هبت هبوب عاتية وتوقفت بعد روح قليل من الزمن.

لمح ناراً على بساط الخيمة مما جعله يبصر فزعاً، ولكن اتضح له أن هذه النار مجرد سلسال يعود للمرأة وحسب، فهرع خلفها ليعطيها غرضها ولكنه لم يجد شيئاً على الإطلاق وكأن الرياح التي هبت ابتلعتها بعيداً!

كان الموقف مريباً، وهو يردد مع نفسه - أين ذهبت المرأة؟ هل كانت موجودة في الأصل؟ - ولم تطل جوانح الأسئلة حتى رجع

للسال الذي شهد أنه سال فريد من نوعه، وليس مجرد حلية تافهة.

كان السال قطري الشكل، وجوانبه خرفت على هيئة مثلثات صغيرة محددة على إطار القطر، وكان في وسط القطر ياقوت مشع وكان فيه ناراً تشتعل داخله.

كانت هذه النار مرهبة، واتضحت حقيقتها عندما خمد هو إلى فراش النوم والسلال بجانبه، فلم يقو على النوم من قوة النور الذي يشع من هذا السال الخلاب، وهي يسأل نفسه: ما نوع هذه الحلية الفظيعة! لم أر بمثيلها أي حلية تشبهها قط، ربما تكون زمرة! أو مرجان، ولكن ما سبب توهجها العنيف!

أسئلة حائرة لم تجد من يجيب عليها، ولكن اصر على رد السال إلى صاحبته؛ وعلى هذا عند قيامه من هجوعه ذهب حتى يرعى الماشية، ودعا الخالق، رب شد أزري أنك السميع العليم. انطلق يجول بالبهائم وفي باطنه يأمل أن يصادف تلك المرأة لعله يرجع لها ما كان ملكها حتى يزيل عنه حمل ملك ليست ملكه. مر روح من الزمن بلا إشارة، حتى صادف ابن سبيل في طريقه ولم يعره أية انتباه، بل إن المسافر بادر التحية حيث ظهرت عليه علامات الهرم في السن:

- السلام على الراعي.
- عليك السلام يا هذا.

- ماذا يفعل رجل بيهاته في هذا الحيز العتيق، حيث لا توجد نعم للرعي بها!
- أرعى الأغنام كل نهار في هذا المحيط والبراح، ولا أرى ما تشير إليه يا كهل.
- أمتأكد أنت؟ انظر حولك.
- نعم، صدقت! هذه ليست الأرض التي أحرث منها معيشة غنمى، لقد سقط عنى سهواً مساري المعروف، كيف حدث هذا؟
- لا يفيد العتب على النفس بعد قضاء الأمور، ولكن يجب أن تعلم أنك في أرض ليس للبشر فيها قنطرة خير، فلا تأكل من ثمارها، ولا تشرب من آبارها رشفة واحدة، ولا تتغنى بأشجارها ثم ترتاح عندها.
- وما دام رزقها لا يشمنا، ما يجلب كهلاً مثلك في مكان كهذا؟
- أنا مجرد ابن سبيل يسافر لا أكثر.
- لا أرى معك غرضاً واحداً يعينك على الترحال يا كيبرنا. قولك وتحريمك هذا، لا يؤثرنـي إلى تصديقك، ولما أخالف كلامك؟ حسناً، هي ليست ملك أحد سوى مدبـرها ولو صادف العكس سأعلم بذلك، إذاً هي أرض للناس جمـاء.
- يا رجل، اـيـقـنـ الخـفـاـيـاـ منـ الـبـطـوـنـ.

ولى الكهل وجهه، ولكنه لم يهتم بما حذر منه وأدبر ظانًا أنه
حادث مجنوًّا من مجانين البدراة.

أما الآن فاللهم هو رعي الغنم وملء بطنه إذ هي آخر عطایا
الرب والمِلَكُ الْوَحِيدُ بعدَ أَنْ فَقَدَ وَالدَّتَهُ.

جال مع البهائم ولكنها في إبان مشيّه حدث وأن وطأ يده إلى
جيبيه الجانبي، وحمل في يده السّلسلَ إِذَا بُشَّرَّاً رَّتَهُ لَمْ تَعْدْ حَيَّةً
مثلماً كَانَتْ!

وكان نورها انطفأ بريح لا نفس له، هنا بدأت الشّكوك
والمخاوف تضغط عليه حتى كانت أن تبور منه، ولكن جلافة
العرب وصلابتهم لن يجعله يرجع إلى خيمته رعباً بسبب أحداث
عرضية.

لها عزم على نسيان قصة السّلسلَ الغريب العجيب الذي كان
يوماً يشع ببحور الحياة، فمات في أرض ميته. وعلى هذا مضى
بالبهائم مترنحاً من إرهاقٍ لا سبب له وباحتاً عن ظل في شدة الشمس
الحارقة، حتى لمح نوراً في وسط العراء، ومن علمه وخبرته وسوابقه
مما شهد، علم أنه فُخُّ آخر، وعلى هذا غير طريقة.

سار بضع ساعات ولم يعد يحس بالزمن حتى أن فقد أغمامه.
ولما رأى النور مرة أخرى تبعه ووافق على شروط صائد العراء وعقد
صفقة سرية معه، بعدها انطفأ كل شيء حوله.

بعد مضيّ وقت، فزع من نومه ووجد نفسه في غار على أعلى الجبل ولا شيء يضاء حوله سوى القلادة التي معه. فزع في الأصل عندما استوحت له أغنامه وما معها من ماشية تركها خلفه. قرر السعي خلفها لعله يجد معقلها التي ولت إليه. وفي ثيابه عودته إلى خيمته وجد مشهداً جعله يخاف حق الخوف أكثر مما واجهه من قبل، لقد تغيرت الدنيا وتطاول الحفاة العراة في بناية البنيان.

لما خرج من الكوخ وجد عالماً لم يعهد عليه من قبل، صحا في عالم ليس بعالمه وزمان غير ذي زمانه. في المستقبل حيث أحدثت هذه الصفقة لعنة غيرت بها مجرى التاريخ ونقلته مئات السنين إلى الأمام. تم محو خيمته عن بكرة أبيها، وبناء محطة من بنيان المجتمع المدني الحديث حيث توفر للمسافرين كافة الخدمات، مشى لها الهمداني بدهشة مما يرى، دواب كبيرة تتحرك وداخلها بشر وناس بأزياء مختلفة وأنظف من أسلافهم، وأعراق متجانسة لا يعرف من فيهم العربي والأعجمي.

وهو يحاول استيعاب ما جرى وإذا به يسمع صوت زئير عالٍ وغير معهاد خلفه حتى أجبره الصوت أن يولي عليه ليرى تلك الدابة الحمراء خلفه داخلها رجلين وكأنما ابتلعتهما الدابة.

وإنما كانت مركبة من صناعة البشر الحديثة، حيث لا
يستطيعها رجلٌ رأى العالم الآن بعدما غفا داخل غارٍ قرروناً مريمة
كغفوة أصحاب الكهف.

لم يستمر هذا الجمود حتى سمع شخصاً يلحن الكلمات!
صوت ملحن يعظم من شخصٍ يسمى الله!
والهمداني يبحث عن مصدر الصوت، ويشكُّون في نفسه تعدد
الآلهة، لذلك قرر تتبع الصوت ورؤيه الإله الجديد المزعوم، وفي
طريقه استمر هذا الملحن بالثناء على الإله. الله أكبر الله أكبر،
حتى وصل إلى ختامه: لا إله إلا الله!

فتعجب من هذه المقول، فكيف للعرب أن توحد أربابها
وأصنامها وأوثانها في شخص واحد؟

تجمع التابعون ووقفوا أمام رجلٍ ظنه الرب المزعوم أو ممثلاً عنه!
ووقفوا يكبرون على الجدار، حتى جلس الأعرابي يتتصت
عليهم ليعرف ما الجديد في هذا العالم، عندها استهل الإمام سورة
الفاتحة غريبة المسامع عليه، فتلها بتلاوة آثرت في نفسه عن فصيلة
تسمى بالجن، إذ قد جابها عدة مرات وهزمها ثم هزمته في الآخرة.
تلا الإمام في الآية الأولى: قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمِعَ نَفْرَ مِنَ الْجِنِّ
فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً
عند ها سمع رجلاً من الواقفين متأثراً بالتلاء: إِنَّا حَقًا سَمِعْنَا
العجب!

ثم عاد وقال: يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً
ورد عليه نفس المصلى: إنه الله لا إله إلا هو!
عندما تأثر بما شهد، حدث نفسه: أي رب تخضع له أجيال
الخلوقات وأكثرها قسوة؟

عندما خلصت الجماهير من دعوتها لربهم الأوحد، هم يبحثون
عن هذا الداعي الذي تحدث من جموع الناس ورد على صاحب
الترتيل مصدقاً لما يقول، إنما لا أثر لهذا الرجل لكثره الرجال
وعددهم.

خرج من المعبد كما يصفه، إلى مكان جذبه بالرائحة الزكية
التي تفتت النفس!

كان مطعماً يقدم وجبات للمسافرين، حيث أندهش الجائل
بين الناس الذي نسوه والعالم الذي نبذه، وعندما دخل المكان
تعجب من الزخرفة والبناء الذي بنيت به، متسائلاً عن كيفية
بنائها، أكانت حجراً أم طيناً من نوع استثنائي؟

عرج على كل من في المطعم يلقي عليهم نظرات الفضول فاحصاً
لهم حتى يتتأكد من واقعه، حاسباً أنه كابوس خبيث! ومحاولاً
القيام منه. ولكنها كانت لعنة أبدية بل نقطة ثابتة لا يحول دونها
أي سبيل للتغير.

أصابه الفزع لما علم واقعه الثابت، وأنه حقاً غفاماً مئات السنين،
وتغير الأحوال والعالم، بل حتى لكتنة البشر من حوله وملابسهم

وما يحملونه من غرائب من صنع العجائب، فلا تفسير لها لرجل لا يملك من المعرفة سوى رقعة ثوب مهترئة طال عليها الزمن حتى غدت سوداء مثل العباءة.



الفصل السادس

انهى الراوي حكايته، وقبل قيام مخاطبيه، ذكر نبوءةً تاريخيةً عن رجل في آخر الزمان سيكون أول محارب في التاريخ عزّم على مجابهة بواطن الأرض والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم. سأله جمعاً عن هذا الرجل وأوصافه، وما كان للحاكي إلا أن يلتف على السؤال:

- سيكون نقطة ثابتة في التاريخ لا تقبل الزحزمة ولا لأحد سبيل عليها، قدر له ما قدر ولا مخرج له سوى الخضوع للقدر وتقبل واقعه المحتوم.
- لما لم تكمل القصة، هل تعمدت إنهاءها مبكراً؟
- لأن مسار القصة مثل وادٍ بين جبلٍ، سيبيقى هذا المسار بين الجبل وعلى ناصيةٍ واحدٍ حتى يغير الله الحال بحال.
- وماذا لو هدم الجبل على هذا الوادي؟
- ما ليشري على تحدي ما كتب له من الله ومجابهة الطبيعة القاسمة!

- يا هرِم، هل الأقدار مسيرةً أو مخيرةً؟ وإن كانت مسيرةً لهذا يعني أنك مهما صنعت لن تجد سبيلاً لك من علل الحياة المرة!

- يقول الله سبحانه في كتابه الكريم: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلَّهُمَّ هَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا (٨) * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا. الآدميون فيما يقول كافة الأديان الإبراهيمية قبل تحريفها من الناس، أنه مخير في نفسه، فهو يحمل الخطايا

والصلاح، ولكن من يعمل على إظهار خطایاه فقط خاب وخسر،
ومن ساهم في إصلاح نفسه سيجد طریقاً له في العدول عن نباء
المحروم، إذاً الإنسان مخيراً في طبیعته وليس في الطبیعة نفسها ما
دام وُهِبَ ملکة التقریر في حياته.

قبل رحيله طلب من الراوي أمراً:

- هل كانت مقابلتي لك صدفةً أم قدرًا؟

- أخبرني أنت، أنتظنك هدمت الجبل على الوادي كما تدعى؟

أدبر في نهاية المطاف وولى عن الراوي، وهو يجول بأسئلة ثقلها

يزن جبال أحد لا مجيب لها ولا جواب. أما أحد الأسئلة فكانت: إذا

كانت مقابلتي للراوي مقدرة، وهذا يعني لو أني غيرت أحداث

القصة المحبوكة سأسلم من تداعياتها؟

لإعمال سؤاله والبحث عن جواب، قرر الرجوع إلا مكان

الشر، النقطة التي بدأت معها كل الأحداث، وتمنى أن يمحو هذا

الشائبة من حياته، بل هي عصية على البشر لو علموا!

عزم الرجوع على قدميه مستغنىً عن كل السبل التي خطط لها

مسبقاً، وهو متأكدٌ بإمكانية تغيير القدر لو أتخذ الإنسان سبيلاً

غير الذي أراده.

حتى عندما وقفت مركبة من أجل مساعدته قرر عدم ركوبها

ظافرًا أنها من تدبير الأقدار، وأنه لا يوجد شخص يمشي في وقت

تلتهب فيه الأرض من الحرارة إلا من أراد تغيير مستقبله.

لم يتردد في رفض أي مساعدة أو أمر يريده، حتى عندما أراد

الاستراحة حسب أنها من تقدير النبأ عليه وليس له.

عندما يحاول شخصٌ مواجهة القدر فإنه يظن أن تحويل كل ما

عاش في ماضيه سيغير مستقبله، إنما العلة أن القدر ربما يكون

محتمٌ خلافاً على ما تعلمه الفرد وما عاشه ومكانته الاجتماعية ووعيه للحياة وكل شبر حست به أحاسيسه الخمس، كلها ستكون مواقف تعلم مع وضد الشخص نفسه.

في خطأه كان يسعى للرجوع لأصل الجذر ويحاول أن يغير كل ما تبأ به الكهل الراوي، رغم عدم سماعه للحبكة كلها! حلت بدايات الشفق وأقترب تعاقب الشمس إلى القمر قرابة شبرٍ وهو لم يصل لمكانه بعد، إذ يطمح لعله يجد الرجل الذي سرق منه خريطة الكنز المزعومة، حتى يعلم خفايا هذه القصة برمتها، ربما لتغييرها أو لتبنيها، ولكن في ثايا هذا السير، إذا بنور يشير من بعيد وكأنه شخصاً يلوح بکشافٍ طلباً للنجدة وسواء حتى لم يعره أية أهمية تذكر، ربما ظناً منه أنه من وحي الأقدار له.

وعندما تجنب طالب النجدة، وجده بعد قطع مئات المترات يلوح بمصاحبه وكأنه انتقل من مكانه قفزاً، مخالفًا قوانين الطبيعة المنطقية.

موقف كهذا يتطلب مقداماً يقدم عليه حتى يعلل ما به من علل، وهذا ما جعله يخطو تجاه ناصية المشير بمصاحبه، وعندما اقترب منه وجده يبعد أكثر فأكثر، كأنما يسحب نفسه ببساط سحري غير ذي فهم للناس.

ولحقه ثم لحقه حتى توقف صاحب المصباح، وإذا به يقترب منه فيجده بحلٍ طبيعي رغم قدم ملابسه التي تذكره بأشخاص وربما شخصين قابلهما في السالف:

- لما تبتعد وأنا آتٍ لك للتحقق منك، مسالماً معك وليس مجرماً عليك؟
- فعل تافه مني ولا قصد مني.
- لما تحمل مصباحاً معك في وسط هذه الصحراء القاحلة، بلا عون ورفيق ولا تبدو عليك علامات قطاع الطرق؟
- أسلوبي أنطوى على حتى أصبحت ألقب بابو فانوس، هذا الاسم الشهير الذي خلده رواتكم ممن رؤوني وشهدوا عجائبني.
- ومن تكون أنت يا أبو فانوس؟ ولم نذكرك في كتبنا أو قصصنا كما تزعم؟
- سقط سهواً عني أن أذكرك بأنه سيحدث في المستقبل وحسب، إنما الآن أنا خلف على سلفي لم توثقني العرب في كتبها حتى الآن، إني يا رجل من مثلك مجرد عابر سبيل ينجد من ضاعت بهم السبيل في هاته الطرق الوعرة.
- وكيف تتجدني وأنت لست بحاملٍ شيئاً سوى رقعة ثوبك ومصباحاً يوشك على النفاد؟
- أستخدم المصباح لتذليل ظلمة الليل وجلب من ضاقت به الطرق إلى حتى أنجده.

- والمقابل على إنقاذه؟

- قلادة متوجحة معك، فقد أرمها لي وأدליך على مكان تبرح به
نعم الحياة كلها.

- وماذا لو رفضت؟

- سترى مني الزعاف المميت على جنسك، وسأبكيت الدهر في
الصحراء، أجولها بحثاً عن أقصى ظهره بتحريف طريقه ورده عن
الصواب.

- المسالمة يا أبو فانوس لا تكتمل مع إهلاك حيوانات الناس، لما
تشتت الناس عن طرقمهم وتحرفهم عن مساراتهم إلى هلاك لا مخرج
ومطلع منه.

- وهل يطالب المخلوق بتسبيب أفعاله؟ لقد خلقنا يا ابن آدم من
نار مارجة، سوداء كسواد لم تشهده أنت وسلافك، نزع في قلوبنا
مرضُ الحقد والكرابحية للبشرية، المخلوقات الكريهة الواهنة،
وأنا عن دربي لن أحيد!

هنا أدرك أن مهمته تغيرت، وأن مصير ثلاثة من الناس يقف على
عاقته في مجابهة شيطان حقير ظهرت أهدافه اللعينة.

- يا ابن النار، أنا ابن صعصعة، والله أني وليت نفسي عليك
حتى يوم الحساب؛ أن أرد عن الناس أخطارك ممن يتبعونك حتى
أصوب طريقهم إلى طريق حسنٍ.

بني على نفسه وعيدها لن يقبل دحضه، وما هي إلا مهمة تتطلب المال والعمل والجهد لذلك، ثم خططت كيف يحيث الناس على البعد عنه، من يصدق رجلاً يصبح الناس في الكثبان حتى يبعدهم عن غول يعميهم عن دربهم ويضلهم سواء السبيل.

خرج عن هذه المنطقة صوب الطريق لعله يجد من يقله، وحاول تذكر معالم المكان وحفظ مساراته حتى يرجع له لاحقاً.

وفي اجتهاده لحفظ المكان، إذا بصاحب عربة حمولة يحمل في مقطورة العربية علهاً وشعيراً للأغنام، يتوقف عنده:

- ماذا تفعل في غمرة هذه القاحلة؟

- هل تسأله لتعرف، أم لتشاركني المسير فيها؟
ضحك السائق وعلم أنه في رحب رجل نظيف النوايا، ولا يضمر شرّاً تجاه قائد المركبة.

- اركب يا رجل، وحدثني عنك، فأني أرى فيك علم الدهر!
ركب معه، وكان في جوفه يعلم أن إطلاع غريب على قصة كهذه؛ ما هي إلا مدعوة للجنون والخرافة، ولكن قطع على نفسه وعداً شديداً في مواجهة ملعون القاحلة الغول وإخطار الناس عن مخاطره؛ لعلهم يدبرون عنه.

- لست ممن يتبعون أكاذيب الجاهلية، ولكن ما صادفته اليوم يغير كل شيء، يغير التاريخ بأكمله، أنها نبوءة تستحق نبياً لها،
نعم أنا من سيحكي القصة أخيراً.

- وما هي القصة يا رجل؟ فلقد أربكتني!
- أنها قصة نتة عن مخلوق يجوب صحاري الخرمة، يلقب نفسه بأبي الفانوس، ذو مظهر قبيح ليس منا رغم تشابه صفاته بنا، الغرور والحدق والطبيعة الأنانية، أما أنا فلقد قطعت على نفسي وعداً بمعاقبته وصد الناس عنه.
- لن يصدق أحداً في بداية الأمر قصة كهذه ولكن عندما حكها بهذه الطريقة جعل صاحب العربية يصدق مقاله وكأنه يراه بعينيه؛ إيمان تام ليس بجديد على البشر.
- ماذا تحتاج مني؟ فأنا معك فيما أقدمت عليه، فقل.
- ما زلت أخطط وتقضي العدة حتى أقوى عليه وأضرره في مضرب الموت.
- كلما طال الزمن بك وجدت صعوبة في الوصول لحلول قاصمة، أسرع الحلول وأكثرها تهوراً قد تكون أفضلاها بحكم أن ظروف الظاهرة لم تتطور بعد، وأصعب المشاكل تتطلب أبسط الحلول!
- أخذه السائق إلى أقرب مكان للاستراحة عارضاً عليه الاستراحة ووجبة، وعندما وافق أتى السائق بالغداء له بدون قسم له؛ معللاً ذلك بأنه يفضل الغداء لوحده. ولما خرج، لحقه فوجده يهرس العظام. وبعدها علم ألا رفيق له بعد الآن سوى نفسه.

بعد مرور عقودٍ من الزمن، غداً الآن راوٍ للحكاية، فمن كان
بطلها أصبح راويها.

تضارب به الأفكار والتصورات حول ما جرى في آخر لقاءٍ مع
آخر مخلوقٍ حي أو ميت أو كلاماً.

مرت فترةٌ طويلةٌ في آخر غولٍ جابهه ويتمنى ألا يقابل من هاته
الخلوقات الكريهة البشعة أحداً.

بعد صدمته في أعقاب رؤيته لقائد المركبة يهرس العظام؛ علم
أنه في حاضرة غول آخر من بني الغيلان، على عينٍ من قابلهم في
محطات حياته، وكان في حوزته جاذبية تجذب حالة من الإعجاب
حوله، ولكن في حاليه لم تجذب له إلا القذارة.

يحكى للناس للمخاطبين قصته، وكيف وصل إلى ما هو عليه
الآن، حيث تبدأ ليلة الملحمة من يوم هروبه من المكان وإيابه إلى
نفس ما كان عليه، ابن سبيل شبه ضائع في منطقة ضخمة
التضاريس وقليلة التكددس من الناس.

عندما فكر نقدياً في أسباب كل هذه المشاكل؛ خلص أخيراً
أن منبع الخطر بدأ مع إقلاله لضائعة السبيل المشرد، نعم الحكاية
الخبيثة تبدأ من هنا كما يحسبها.

قرر بعد عناءٍ كثيرٍ في التفكير، الرجوع إلى آخر موقعٍ تقاطع
له مع الغول، ولكن هاته المرة لم يكن لوحده، مرت السنين حيث
قدر على تكوين جبهةٍ من الرجال المؤمنة، جال العالم ناشرًا لمذهبِه

الجديد، ومكواناً لطائفةٍ درست الجن وفصالها حق دراسة وعلمت
خياليها وكيفية قتلها مستخدمين معادن الأرض كأسلحة لهم.
عندما أنهى طرح الحكاية بكمالها، غضا في قصره، وفي
صدى غفوته، رجع له حلمه، أما هذه المرة كان الحلم كاملاً
كان رجوع الحلم كاملاً، أما في هذا السياق، الحلم رجع
بسماته القوية وبطلها ليس نمرود الطاغية ولا الملك سليمان، بل
جماعان، في وسط الصحراء على قصر عاج يلوح أنظاره ومتعبدها
بالقضاء على غيلان الصحراء وأعوانهم للأبد، مرجحاً الجنس
البشري على غيره، وعملنا حربياً أبدية على مخلوقات الوشاح في
بواطن الأرض، مطلقاً على قصره قصر الديهي الذي يحمل فيه
من الكنوز ما يغطي الأحياء والأموات ومن بعدهم.

